

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم اللغة العربية و آدابها

نظرية الموشح

ملهما في آثار الدارمين العرب و الأجانب

مذكرة للحصول على شهادة الماجستير

في نظرية الأدب و علم الجمال

إشراف:

د. محمد محيي الدين

إعداد:

زهيرة بوزيدي

لجنة المناقشة:

رئيسا

أ. د. محمد زمرى

مشرفا ومقررا

د. محمد محيي الدين

عضوا

د. بومدين كروم

عضوا

د. محمد بن العمر

السنة الجامعية: ٢٠٠٥-٢٠٠٦

مقدمة

" نظرية الأدب "من أجلّ العلوم الأدبية وأكثرها فائدة، وذلك لتناوله قضايا على جانب من الأهمية، كنشأة الأدب، وطبيعته، ووظيفته، أو - بعبارة أخرى- مصدره، وماهيته، ومهمته.

وقد ظهرت بواكيره في بلاد اليونان على يد أفلاطون وأرسطو صاحبي أول نظرية أدبية، نظرية المحاكاة. ثم توالى النظريات الأدبية، كنظرية التعبير، ونظرية الخلق، ونظرية الانعكاس، وغيرها.

ويجد الباحث في تراثنا النقدي أصول نظريات أدبية. غير أنها - للأسف - لم تتطور ولم تكتمل. ومن ذلك ما نجده عند الجاحظ، وقدامه، وحازم، وغيرهم. وإذا كانت للأدب بعامّة نظرية، بل نظريات، فإن لأجناسه، أو أنواعه، أو فنونه، نظريات خاصة.

وقد حاول بعض الباحثين التنظير لعدد من تلك الفنون، كالقصة القصيرة، والرواية، والمسرحية. وفي المكتبة عدّة مؤلفات في ذلك.

يبد أن هناك فنونا أخرى ما تزال في حاجة إلى بحوث تنظر لها، معتمدة على ملاحظات النقاد ونتاج المبدعين. ومن هذه الفنون: فن الموشح الذي اخترته موضوعا لبحثي.

ويعود اختياري لهذا الموضوع إلى بواعث ذاتية، و أخرى موضوعية.

فأما الذاتية، فتتمثل فيما يلي:

- ميلي إلى الشعر الذي أعده الفنّ الأدبي الأسمى.

- إعجابي الكبير بالأدب الأندلسي، وبالموشحات خاصة، وذلك لما لها من مقومات فنية وجمالية كفيلة بأن تُميل إليها العقول، وتملك زمام الأفئدة.

وأما الموضوعية فمنها ما يلي:

- محاولة جمع أشتات نظرية الموشح على نحو ما فعل بعض الباحثين بالنسبة إلى الفنون الأخرى.

- جدّة الموضوع، فلا أعرف أحدا قام بما حاولت القيام به.
- دعم المكتبة بدراسة جديدة في مجال نظرية الأدب من جهة، وفي ميدان الأدب الأندلسي من جهة أخرى.
- كون هذا الموضوع يخدم اختصاصي.

وإذا كان لكل من يتصدى للبحث غاية يسعى إلى تحقيقها، فقد كان هدي في الخروج بنظرية متكاملة لفن الموشح، وذلك بجمع ما تناثر من أقوال تنظيرية في آثار الباحثين القدماء والمحدثين في: نشأة هذا الفن، وفي طبيعة، وفي وظيفته، وتمحيصها ثم ترتيبها بحسب ذلك، مقارنة تلك الأقوال بنتائج الموشحين، ومكملة إياها بما ألاحظه من خصائص ذلك الفن في ذلك الإنتاج. ومن أمثلة هذه الآثار: "دار الطراز" لابن سناء الملك، و"الذخيرة" لابن بسام، و"تاريخ الأدب الأندلسي في: عصر الطوائف والمرابطين" لإحسان عباس، و"فن التوشيح" لمصطفى عوض الكريم وغيرها.

غير أن ثمة صعوبات عرقلت مسيرة بحثي، تمثلت في قلة المادة الأدبية المتعلقة بالفصل الثالث، والذي تناولت فيه وظيفة الموشح ومهمته، وذلك مما قلل من الجانب الكمي للفصل.

وقد أخرجت رسالتي في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة. فأما التمهيد، فألقيت فيه الضوء على نظرية الأدب.

وأما الفصل الأول: فخصصته لبيان نشأة الموشح، مقارنة بين الأقوال المختلفة في ذلك، مرجحة ما اطمأنت إليه من الآراء في هذا الموضوع.

وفي الفصل الثاني: حاولت أن أبين طبيعة الموشح فتحدثت عن جوانبه الشكلية، وما كان يتناوله من موضوعات، وما يحمله من مضامين.

وكان الفصل الثالث: لبيان وظيفة الموشح.
وقد استخلصت في الخاتمة نتائج بحثي أي: ما انتهيت إليه من تحديد لملامح
نظرية الموشح.
وقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع أن اعتمد المنهج التاريخي للبحث في نشأة
الموشح وتطوره، والمنهج التحليلي لبيان طبيعته وسماته.
وما كان "النظرية الموشح" أن يتم توضيح ملامحها لولا توجيهات أستاذنا
المشرف - جازاه الله بكل خير - الذي لم يدخر أي جهد في سبيل تذليل معوقات
هذا البحث وتجسيده حتى يصبح حقيقة لا مجرد فكرة، كما أوجه شكري وثنائي
الكبيرين إلى كل من ساهم في دعم مسار بحثي هذا من قريب أو بعيد.
وعلى الله قصد السبيل.

تلمسان يوم: 19 ديسمبر 2005

مدخل

في نظرية الأدب

1- نظرية المحاكاة

2- نظرية التعبير

3- نظرية الخلق

كثيرا ما كان النشاط الأدبي حصنا منيعا يستعصي فتحه على الدارسين، وذلك لما له من خصوصية تجعل خوض غماره أمرا صعبا. وإن وقع ذلك اعتوره شيء من النقصان، وحل محله أو قابله ضد أتى بمفاهيم منطقية ومقبولة، فسادت الحيرة ونقض الغزل، بعد أن توهم الباحث أنه ختم بحثه.

إن النشاط الأدبي، لارتباطه بالإنسان، لا يخضع لحكم أو قياس، وذلك لأنه "قصة المشاعر والأحاسيس، ورواسب الشعور"¹. وهو أيضا "نشاط إنساني نوعي، له حقيقة من حيث عملية الإبداع، وله آثار من حيث وظيفته الاجتماعية"².

وقد عرف الأدب تحت إطار عام هو: الفن فكان جيروم سولنيتير: "المعالجة البارعة الداعية لوسيط من أجل هدف ما"³. والفن "نتاج إنساني، وهو أكبر فرح يمكن أن يهبه الإنسان لنفسه، حيث يرى نفسه وقد تخلصت من جميع القيود والتشويهاة. ويكون جميلا"⁴، ويقول الدكتور محمد مندور: "الأثر الفني تعبير وخلق وإدراك، وهو حصيلة اتحاد ذات الفنان بالعالم الخارجي والباطني معا، وإنه، آخر الأمر، تعبير عما يوجد بالقوة أو بالفعل في نفوس الغير ثانيا"⁵.

وللدكتور طه حسين رأي في العمل الأدبي يوضحه بقوله: "إنما الأثر الأدبي عندي، هو هذا الذي ينتجه الكاتب والشاعر كما استطاع أن ينتجه، لا أعرف له قواعد ولا حدود، إلا هذه القواعد والحدود التي يفرضها على الأديب مزاجه الخاص وفنه الخاص"⁶.

1 - عبد الحميد بوزوينة: "ظاهرة التطور الأدبي بين النظرية والتطبيق"، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دون طبعة، ص 20.

2 - عبد المنعم تليمة: "مقدمة في نظرية الأدب"، بيروت دار العودة، ط2، ص: 10-11.

3 - جيروم سولنيتير: "النقد الفني: دراسة جمالية وفلسفية"، ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص: 134-135.

4 - مجاهد عبد المنعم مجاهد: "علم الجمال"، القاهرة: عالم الكتب، ط2، ص35.

5 - محمد مندور: "الأدب وفنونه"، القاهرة: دار النهضة للطباعة والنشر، دون طبعة، ص19.

6- طه حسين: "فصول في الأدب والنقد"، القاهرة: دار المعارف، ط4، ص5.

وقد تباينت الآراء في الأدب واختلفت. وكل منها حاول مقاربتة متخذاً وجهة نظر دون الأخرى، فهناك من حاول التحدث عن منشأ الأدب فجعله نفسياً وعاطفياً، والآخر قال بالعامل الخارجي (الدين، العلم، المجتمع...) ومدى تأثير هذه العناصر في التجربة الفنية، وآخرون توجهوا إلى مواصفاته الجمالية والفنية المتميزة، وتصوروا الهدف منه. وعليه ترسبت مجموعة من المفاهيم والتصورات المستندة إلى معرفة أو فلسفة محددة، والتي اتخذت من: نشأة الأدب، وطبيعته ووظيفته، منطلقات لدراساتها الأدبية، فتولدت عدة نظريات تنضوي تحت لواء نظرية الأدب، فكانت نظرية المحاكاة، ونظرية التعبير، ونظرية الخلق، ونظرية الانعكاس وغيرها. وفيما يلي بيان لأهم هذه النظريات:

1- نظرية المحاكاة:

نظرية المحاكاة: هي أول نظرية في الأدب. ظهرت منذ القرن الرابع قبل الميلاد، وصاغ مبادئها الفيلسوف اليوناني أفلاطون، ومن بعده تلميذه أرسطو. وكل من الأستاذ والتلميذ جاء بأفكار فلسفية، خطت بالدرس الأدبي خطوات.

أ- أفلاطون:

قسم أفلاطون العالم إلى عالمين:

- عالم المحسوسات: وهو عالم مادي طبيعي، نعيش تفاصيله كل يوم.
- عالم المثل: وهو عالم سام مثالي، يتضمن الحقائق الخالصة.

والشعر عند أفلاطون محاكاة وتقليد لما هو موجود في العالم المثالي أي أن كل ما هو محسوس ومادي في العالم الطبيعي نسخة مصورة جسدها الشعراء في إنتاجهم، لكن بصيغة ناقصة ومشوهة، لأن النسخة لا تمثل الحقيقة، ولكن تبعدنا

عنها. فهي محاكاة لمحاكاة وجدت من قبل⁷. قد كان مصدر الشعر عند أفلاطون هو الإلهام أو الوحي، وهو قوة دافعة سماها " ربة الشعر " ⁸.

وتتميز طبيعة الشعر عند أفلاطون بفنية محضة تحوي إيقاعا ووزنا ولحنا. والشعر بذلك قدم وظيفة اجتماعية لأنه يؤثر على سلوك الأفراد، فغايته إصلاحية أخلاقية. يقول في ذلك: " فلنطمئن صاحبتنا الجميلة ربة الشعر، والفنون الشقيقات اللواتي يعتمدن على التقليد، أنهن لو استطاعت أن تثبت لنا جدارتها بالحياة في حرم دولة مرتبة التنظيم، فإننا نسعد باستقبالها. فنحن أشد ما نكون يقظة إلى سحرها " ⁹.

ب- أرسطو:

بين في كتابه " فن الشعر " أسسا مستحدثة لنظرية الأدب، حيث تحدث عن نظرية الشعر وطبيعته ووظيفته، وذلك على النحو الآتي:

1- نشأة الشعر:

اعترف أرسطو " بغريزة المحاكاة " كمصدر لنشأة الشعر. بيد أن أرسطو، خلافا لما أتى به أفلاطون، جعل المحاكاة مقتصرة على الفنون عامة، سواء كانت جميلة، كال موسيقى والرسم والشعر، أو فنونا عملية، كفن العمارة والنجارة، في حين أن أفلاطون عموما المحاكاة على الموجودات كلها ¹⁰.

ولا تقف المحاكاة في رأيه عند ما هو خارجي واقعي، بل زاد على ذلك، حيث أعطاه مفهوم الممكن والمحتمل؛ فالمحاكاة عنده تكمل ما هو ناقص في الطبيعة، أو هي

⁷ - ينظر: شكري عزيز الماضي: " في نظرية الأدب " بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، دون طبعة، ص 12 .

⁸ - ينظر: إحسان عباس: " فن الشعر "، بيروت: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 2، ص 161-162.

⁹ - أفلاطون: " الجمهورية"، الكتاب العاشر، نقلا عن: شكري عزيز الماضي، المرجع السابق، ص 27.

¹⁰ - ينظر شكري عزيز الماضي: المرجع السابق، ص: 33.

محاكاة أفعال الناس الممكنة الوقوع أو المحتمل أن تقع، حتى تصبح الحياة أكثر جمالا، بعد تدخل الفنان بخياله الفني ¹¹.

2- الطبيعة الفلسفية للشعر:

جعل أرسطو للشعر طبيعة فلسفية، تكمن في وصف الموجودات بالضرورة أو الاحتمال، ويسوق لذلك مثال المؤرخ والشاعر.

فالمؤرخ يأتي بحقائق وقعت فعلا، فيذكر ظروفها ووقت وقوعها إلى غير ذلك من الملابس التاريخية. بينما الشاعر يعمل على إعطاء أسماء للأشخاص، ويصرح بأقوالهم ويصف أفعالهم التي وقعت أو المحتمل وقوعها، بتصور خيالي بما يتضمنه من استعارات وتشبيهات ¹².

3- وظيفة الشعر

اتخذ أرسطو منهج الوصف والاستقراء لنقل أحداث فعل الشعر في نفوس المتلقين، لما يمنحهم من امتاع وإفادة، وحدد أرسطو الوظيفة الشعرية في التراجيديات التي رفضها أفلاطون، فهي تنمي عاطفتي الشفقة والخوف، واعتبرها وسيلة " تطهير " من كل العواطف المتزمتة والمكبوتة داخل النفس البشرية، وذلك عن طريق البكاء على الحوادث المحزنة، أو السخرية من الحوادث المضحكة ¹³.

وإذا كانت التراجيديات تجعل المتلقي يشعر ببعض الطمأنينة، لأنه في منأى من عذاب الأبطال التراجيديين، أو لأنه يشعر بتفوق عليهم، فإنها تثير فيه عاطفة اليقظة حتى يستعد لاستدراك الأخطاء ومحاولة تصحيحها ¹⁴.

¹¹ - ينظر: المرجع السابق، ص 34.

¹² - ينظر المرجع نفسه، ص 35.

¹³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 41-42.

¹⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص 43.

ويذكر الدكتور عبد المنعم تليمة أن عاطفتي الخوف والشفقة، تساعدان الفرد على تنمية مشاعره تجاه ذاته وتجاه المجتمع، بغية الحصول على الانسجام في العلاقات الاجتماعية¹⁵.

وقد تطورت فكرة التطهير الأرسطية، ودخلت مجال الطب المعاصر بما يسمى بمداواة الشر بالشر، بحيث يتناول المريض مقادير من الأدوية من شأنها إثارة نفس الأمراض، كما يحدث في التطعيم والعلاج بالهزات الكهربائية للأمراض العصبية. فالغن يساهم في التحرر من بعض الانفعالات، كما يساهم الطب في نزع شوائب الأمراض العضوية¹⁶.

جـ- نظرية المحاكاة في التراث العربي:

تأثر النقاد العرب، القدامى خاصة، بآراء أفلاطون وأرسطو حول المحاكاة، حيث نجد الجاحظ أول ناقد عربي حاول إرساء أسس نظرية أدبية متكاملة، لكنها لا تزال بحاجة إلى الجمع والتصنيف¹⁷. يقول الجاحظ في نفس الموضوع محاولاً تقديم تفسير عام للمحاكاة: "ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له: العالم الصغير سليل العالم الكبير، لأنه يصور بيديه كل صورة ويحكي بفمه كل حكاية، وإنما تهيأ وأمكن الحكاية لجميع مخارج الأمم لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين، وحين فضله على جميع الحيوان بالنطق والعقل والاستقامة"¹⁸.

وكان لفكرة الإلهام والوحي التي جاء بها أرسطو أثناء تحديده لمصدر الشعر، تماثل واضح عند العرب؛ فإذا كانت عند أفلاطون "ربة الشعر"، فالشعراء العرب

¹⁵ - ينظر: عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، ص 156-158.

¹⁶ - ينظر: محمد غنيمي هلال: "النقد الأدبي"، بيروت: دار العودة، ط 1، ص 32-40.

¹⁷ - ينظر: شكري عزيز الماضي: المرجع السابق، ص 200.

¹⁸ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: "البيان والتبيين"، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مؤسسة الخانجي، ط 3، ج 1، ص 70.

عرفوها باسم "شيطان الشعر". فكثيرا ما سيطرت التزعة الغيبية على فكر العربي في عصر الجاهلية¹⁹، إذ يقول الراجز عندهم:²⁰

إني وإن كنت صغير السن وكان في الغيب نبو مني
فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن

فالشاعر يحيطه عالم سحري غريب، والعالم الواقعي عنده مجرد صورة منسوجة عن عالم الحقيقة الذي يعيش فيه ويعبر عنه، ويرسم ملامحه حسب رؤيته الخاصة. ويرى الدكتور محمد غنيمي هلال أن الاعتقاد بشيطان الشعر اقتصر في بادئ الأمر على "الروح الملهمة التي تستتر في مقرها الشيطاني أو الجني، وهي "العبقرية". ومعلوم أن من العرب من كان يعبد الجن خيرة أو شريرة²¹. ويظهر ذلك في قوله تعالى: "وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم. سبحانه وتعالى عما يصفون"²².

2- نظرية التعبير:

قامت هذه النظرية على أنقاض نظرية المحاكاة مع بدايات القرن الثامن عشر، فظهرت ضمن ظروف تاريخية مغايرة، حيث قضت الثورة البرجوازية على الإقطاع وسادت حركة الحريات الفردية²³.

أ- نشأة الفن:

على النقيض من نظرية المحاكاة اهتمت نظرية التعبير بالشخصية لا بأفعالها، واعتبرت الفرد عالما قائما بذاته له الحرية والإرادة المطلقتان. وهذا يقود إلى تعدد الذوات والأهواء، مع قيادة الوجدان لا العقل²⁴.

19 - ينظر: محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي، ص: 365.

20 - الجاحظ: "الحيوان"، تحقيق محمد عبد السلام هارون، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، ج6، ص 231.

21 - محمد غنيمي هلال: المرجع السابق، ص: 365.

22 - سورة الأنعام، الآية 100.

23 - ينظر: شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، ص 49.

24 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 51.

فالأدب عند التعبيريين مصدره ذاتي، ينمو ويتطور داخل العالم الطبيعي المقدس الذي يقوي نار العواطف ويغذي شرايين القلب، بخصوبة الوحي الفني، بعد أن سئم الأديب ضجيج المدن وصخبها. فالسبيل للتخلص من ربة هذه العقد هو الطبيعة حيث يعود الأديب إلى نفسه ويعبر عنها²⁵.

ب- مميزات الفن ومهمته

ساهم مجموعة من النقاد والفلاسفة في بلورة مفاهيم نظرية التعبير أمثال: كانط(1724-1800) وهيغل(1770-1831) ووليم ووردزوث(1770-1850)، وصموئيل كولوردج(1772-1834) وغيرهم²⁶.

"فكانط" فصل بين المعرفة الوضعية والعقلية، والمعرفة الحسية والشعورية التي اعتبرها وسيلة للوصول إلى الحقيقة²⁷.

وأما "هيغل" فقد رأى أن الفن هو الخبرة الخاصة، وفيه تتجسد الحقيقة، وتنحصر مهمته في تصوير تلك الحقيقة فنيا بأبلغ المظاهر وأرفعها، على أساس الإبداع الذاتي للفنان، حيث يتأثر بالوقائع الحسية. ومع حركية الخيال يستطيع الفنان إدراك الغاية من فنه²⁸.

وأما "وردزوث" فاعتبر هدف الشعر هو خدمة الإنسان عقليا وجسديا، ومنح السعادة لروحه، بتوجيه الانفعالات النفسية والتعبير عنها فنيا، مع درجة عالية من الإثارة والمتعة²⁹.

وجاء "صموئيل كولوردج" بنظرية سماها نظرية الخيال؛ فهو يرى أن الخيال عملية خلاقية ومبدعة، تعمل على ابتكار صور جديدة، لأنه ملكة لا وسيلة تساعد

²⁵ - ينظر المرجع السابق، ص 50.

²⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص 52-58.

²⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص 52.

²⁸ - ينظر المرجع نفسه، ص 52.

²⁹ - ينظر المرجع نفسه، ص 56.

الفنان على صهر المتناقضات وإعادة بنائها بشكل وحدوي مستحدث. وهذا ما يسميه "الخيال الثانوي"، الذي يكون أقرب إلى الاستعارة والكناية، فيعطي بذلك للمألوف صورة مغايرة، حتى يقبل الواقع بمشاكله³⁰.

وهذا لا يعني أن العمل الأدبي مجرد تخیلات متوهمة، لكن بالوعي والوجدان ينتج الأدب، حيث يلتحم الموضوع بالذات وتقدم الفكرة في قالب جديد ومؤثر.

وقد تنبه نقاد العرب القدامى إلى فكرة الخيال، خاصة عند ابن سينا، وعبد القاهر الجرجاني الذي يوازي بين الخيال والكذب، إذ قسم المعاني الأدبية إلى قسمين: قسم عقلي: يصرح فيه الأديب بالمعنى بحقيقة مباشرة ويظهر في أدب المواعظ والحكم

وقسم تخيلي: وهو التعبير عن شيء لم يثبت أصلا فيقدم الأديب أمورا لا جدوى من حصولها، فيخدع نفسه³¹.

وكثيرا ما تحدد "الخيال من جهة المعنى واللفظ والوزن. وهو صورة حسية عند النقاد القدامى، تتخذها المخيلة وسيلة لها في نقل المعنى. وقسم بعضهم التخيل إلى تشبيه واستعارة، وهو صالح للشعر والخطابة، وإن كان لها حظ يسير منه مقارنة مع الشعر. وقد يتشارك الشعر والنثر باستخدام الخيال ضمن: اللغة والإيقاع"³¹

3- نظرية الخلق:

اهتمت نظرية الخلق بالأثر الأدبي، وألحت على فنيته وسموه الجمالي، أمام تحديات رأسمالية حولت كل شيء إلى سلعة، ونشرت مفهوما واحدا هو قانون العرض والطلب³².

³⁰ - ينظر المرجع السابق، ص 49-60؛ محمد غنيمي هلال: "النقد الأدبي الحديث"، ص 410-437.

³¹ - ينظر عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة"، ص: 297-311.

³¹ - عثمان موافي: "في نظرية الأدب: من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم"، القاهرة: دار المعرفة

الجامعية، ج 1، ص: 173.

³² - ينظر شكري عزيز الماضي: "في نظرية الأدب"، ص: 67.

وفصلت نظرية الخلق بين الأدب والمؤثرات الخارجية (الدين، المجتمع، المؤسسات الاقتصادية...) وجعلت الأدب خلقاً حراً. فلم يعد الأدب تصويراً عاطفياً بل أصبح مع الخلقين بناء لغويا جديداً. فالإبداع بينه إليوت بقوله: "إن الإبداع الفني تأمل عميق وإخراج شيء جديد من هذا التأمل العميق"³³.

هذا ما جعل الأدب يعيش لذاته. لذلك قرر برادلي أن غاية الشعر هي التعبير عن التجربة الشعورية التي تحمل قيمتها دون تدخل خارجي. فالموضوع غير مهم، بل المهم هو صورة تقديمه. فالقصيدة ظاهر لا جوهر. وهذا يعني الفصل بين الشكل والمضمون³⁴.

4- نظرية الانعكاس

آثرت نظرية الانعكاس اعتقاداً معاكساً لما جاءت به النظريات السابقة، فربطت نشوء الأدب بالمؤثرات الاجتماعية المختلفة، عبر عوامل ثلاثة قررها "هيوليت تين"³⁵ ورتبها على النحو التالي :

1- الجنس أو النوع:

ويقصد به المؤثرات العرقية التي تختلف بها أمة عن أخرى، وهذا يعود إلى الدوافع الغريزية للفرد أو المجتمع، وكذلك عامل الوراثة³⁶.

2- البيئة:

وهي تلك التأثيرات التي تفرضها البقعة الجغرافية. "فتين" كان مؤمناً بتأثير البيئة على عقلية الأديب ومزاجه؛ فالمناخ البارد غير الحار: الأول ينشط ويبعث على الحركة، أما الثاني فيساهم في الركود والخمول³⁷.

³³ - ينظر المرجع السابق، ص: 75.

³⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 71-73.

³⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص: 81.

³⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص: 81.

³⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص: 82.

3- الزمن:

وهو ذلك العصر الذي يسود فيه نوع أدبي معين. ويقرر "تين" أن الأدب وثيقة تاريخية به يمكن التعرف على مختلف التيارات "38"، تلك التيارات التي نجدها في أدب شكسبير وتشيكوف وتولستوي والخيام وفيكتور هيجو وأبي العلاء والمتنبي وغيرهم من الفنانين العالميين. وهو تيار حي متصل في الحضارة الإنسانية خلال العصور والأجيال المختلفة"39.

وقد اختار جورج لوكاتش مصطلح الانعكاس لاقتناعه الخاص والراسخ بسلطة المجتمع الكبيرة على الأديب. فهو "يساهم في تشكيل بنية ذهنية تصاغ في كلمات. فالعمل الأدبي لا يعكس الظواهر الفردية المنعزلة، بل يعكس العملية المتكاملة للحياة. وهو انعكاس خاص للواقع وشكل من أشكاله التي تتجاوز الأداء العادي والشائع للأشياء"40.

فوظيفة الأدب عند لوكاتش شبيهة بهدف هاملت الذي أمسك المرآة ليعكس فيها الحياة بكل شمولها.41

وقد رأى الدكتور إدوارد سعيد أن النص دنيوي الصفة، يخضع إلى تأثير العوامل الاجتماعية والتي حصرها في الملكية والسلطة والقوة، وأنه كلما حاول البعض فصل النص عن هذه العوامل (أي الواقع) كانت محاولاتهم فاشلة"42.

38 - ينظر المرجع السابق، ص 82

39 - رجاء النقاش: "أصوات غاضبة في الأدب والنقد"، بيروت: منشورات دار الآداب، ط 1، ص: 184.

40 - رمان سلدن: "النظرية الأدبية المعاصرة"، ترجمة جابر أحمد عصفور، القاهرة: دار قباء للنشر

والطباعة والتوزيع، دون طبعة، ص: 35.

41 - ينظر: مجاهد عبد المنعم مجاهد: "علم الجمال"، ص: 69.

42 - ينظر: رمان سلدن: "النظرية الأدبية المعاصرة"، ص: 156-157.

واستناد هذه النظرية إلى فلسفة واقعية مادية، جعلها تحدد منهاجا خاصا يعتمد على الاستقراء وفرض الفروض ودراسة تاريخ الفنون العالمية في إطار ثقافي عام⁴³.

⁴³ - ينظر: شكري عزيز الماضي: "في نظرية الأدب"، ص: 35.

الفصل الأول

نشأة الموشح

1- النظرية الأعجمية

2- النظرية المشرقية

3- النظرية الأندلسية

4- تقييم

وقف الدارسون مواقف متباينة، حين بحثوا في أصل الموشح، وتنوعت، نتيجة لتلك المواقف، نظرياتهم في أصل الموشح و نشأته. و راح كل فريق يجمع الحجج و الأدلة لدعم نظريته. و النظريات المعروفة في أصل الموشح و نشأته هي: النظرية الأعجمية، و النظرية المشرقية، و النظرية الأندلسية.

و قد استخدم مصطلح "النظرية" الدكتور عمر فروخ، وذلك عندما بحث في نشأة الموشحات الأندلسية¹.

1- النظرية الأعجمية:

يرى أصحاب هذه النظرية أن الموشح ما هو إلا تقليد لشعر غنائي إسباني، عرفه سكان شبه الجزيرة الإيبيرية قبل دخول العرب إلى الأندلس. و قد اعتمد هذا الفريق الذي يتزعمه المستشرقان الإسبانيان "خوليان ريبيرا"، و "غارسيا غوميز" عددا من الحجج، منها ما يلي:

أ- الخرجات الأعجمية:

يرى المستشرقان المذكوران، و من تبع خطهما، أن الخرجات التي كانت تُختَم الموشحات بها ما هي إلا تقليد لأغاني إسبانية شعبية. و ذكر "غارسيا غوميز" أن هذه الخرجات سابقة للموشح، و أنها أُدخلت عليه، و لم يكن للعرب إلا اقتباسها.²

و قد ساهم في بلورة هذا الرأي اكتشاف مجموعة من الخرجات الأعجمية في كتاب "عدة الجليس و مؤانسة الوزير الرئيس" الذي ألفه علي بن بشرى الغرناطي في

¹ - ينظر: عمر فروخ: "تاريخ الأدب العربي، الأدب في المغرب و الأندلس إلى آخر ملوك الطوائف"، بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1997، ج4، ص 422.

² - ينظر: حكمت علي الأوسي: "فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني و الثالث للهجرة"، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط3، 1997، ص 172.

القرن الثامن أو التاسع الهجري. و بلغ مجموع هذه الخرجات ستا وعشرين خرجة³.

كما دعم ذلك الرأي أن هذه الخرجات الأعجمية وُجدت في موشحات عبرية أنشئت بلغة إسبانية عامية أو بلغة لاتينية قديمة، نظمها عدد من الشعراء اليهود أمثال: صموئيل نغrale، وسليمان بن جبرول، وموسى بن عزرا، ويهودا هاليفي وغيرهم⁴.

وأكد " غارسيا غوميز" أن وجود نفس الخرجة في موشحة عربية وأخرى عبرية، في قصيدتين مختلفتين لشاعرين مختلفين، يثبت أنها عبارة عن أغاني قصيرة باللهجة الرومانشية، كانت معروفة من قبل وعليها بنيت الموشحات⁵.

على أن "ترند" لم يستطع أن يتبين ما إذا كانت هذه اللغة التي نُظمت بها الخرجات إسبانية أم برتغالية، ولكنه يجزم بأنها لهجة إيبيرية⁶.

ومن ثم كان انتقال هذه الخرجات إلى الموشحات العربية أو العبرية عن طريق التقليد على شكل أغاني لم تُدوّن، بل تداولتها ألسنة العامة شفها. وإلا لما احتج إلى استعمالها في الموشح المنظوم بلغة فصيحة⁷.

وكانت العلاقة الوطيدة التي تجمع الموشح بالغناء حجة أخرى ساقها المستشرقون لإثبات إسبانية الموشح ، فذهبوا إلى القول بأن هناك أوزانا لا تجري على عادة العروض الخليلية شاعت ونُظمت عليها الموشحات، أي أنها أوزان أعجمية عرفها الإسبان . ومن المستحيل أن يخلو تراث هؤلاء من أي إرث فكري⁸.

³ - ينظر : المرجع السابق ، ص 173.

⁴ - ينظر : المرجع نفسه، ص : 173.

⁵ - ينظر : المرجع نفسه، ص : 173.

⁶ - ينظر : مصطفى عوض الكريم : "فن التوشيح"، بيروت : دار الثقافة، ط2، 1974م، ص:109-110.

⁷ - انظر : حكمت علي الأوسي : المرجع السابق ، ص . 173.

⁸ - ينظر : محمد سعيد محمد : " دراسات في الأدب الأندلسي " ، منشورات سبها، ط1 ، 2001 ،

وكان من هذا التراث أغاني الجونكلير التي عرفها جنوب فرنسا في بروفانس في القرن الحادي عشر، وكان ينظمها الشعراء الطروبيون الذين يطوفون بلاد الغال رجالا ونساء وينشدون الناس أشعارهم الحماسية والغرامية في الطرقات . وهذا ما جعل العرب يستنبطون أناشيد للغناء طليقة الأوزان والقوافي. فتولد بذلك فن الموشحات⁹.

ويذكر "جب" أنه من المحتمل أن يكون الوشاحون قد تأثروا بالأغاني الإسبانية والبروفانسية التي تنبع من طقوس التراتيل الكنسية¹⁰.

ويقول الدكتور مصطفى عوض الكريم: "ونحن أميل إلى الرأي القائل بأن الوشاحين الأوائل قد قلدوا شعرا غنائيا كان موجودا أمامهم سمعوه وامتلات نفوسهم بموسيقاه وألحانه، فحاولوا النظم على نهجه فجاءت الموشحات"¹¹.

وقد أضاف "مننديث بيدال" حجة أخرى تمثلت في نظم الموشحات على فقرات، أو ما يسمى بالأقفال، فذكر: "أنها طريقة غريبة تغاير ما جرت عليه القصيدة العربية ذات الوزن الواحد والقافية الواحدة"¹².

ب- احتكاك العرب بالإسبان:

صحب ذلك التمازج بين السكان وزواجهم فيما بينهم دخول الكثير من الإسبان في الإسلام، فكان الاحتكاك في العادات والتقاليد مظهرا من مظاهر تعرف السكان الوافدين على اللغة اللاتينية العامية (الرومانشية)، أي أنه تولد ازدواج لغوي، وعليه حملت الموشحات آثار ذلك¹³.

⁹ - ينظر: مصطفى عوض الكريم: المرجع السابق، ص: 108.

¹⁰ - ينظر: المرجع نفسه ص: 108.

¹¹ - المرجع نفسه ص: 109.

¹² - المرجع نفسه ص: 110.

¹³ - ينظر: عبد الإله ميسوم: "تأثير الموشحات في التروبادور"، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دون طبعة، 1985، ص: 55.

لذلك يقول "بالنثيا": "إن أهل الأندلس كانوا يتعلمون العربية الفصيحة كلغة رسمية في المدارس والدواوين وفي الإنتاج الأدبي طبعاً، وأما في شؤونهم اليومية فكانوا يستعملون الأعجمية"¹⁴.

ثم يقول: "وكان هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط، تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية... وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين : إحداهما الزجل، والثانية الموشحة"¹⁵. حيث ظهر مجتمع متعدد الأنساب؛ فقد جمعت الأندلس بين العرب القحطانيين والعدنانيين الوافدين من بلاد المشرق إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، والمولدين الذين نشأوا من ذلك التزاوج بين الجنود العرب والنساء الإسبانيات¹⁶، "حتى لقد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية في الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات"¹⁷.

ونجم عن ذلك، بطبيعة الحال، تعدد في اللغات واللهجات، فظهرت أنماط لغوية أخرى؛ فكانت هناك لغة عربية فصيحة، وهي اللغة الرسمية التي تستخدم في مقرات الحكم ومجالس العلم والأدب الرفيع، ولغة عربية منحرفة عن قواعد النحو والصرف، يتكلم بها العامة من أهل الأندلس، ثم الرومانشية أو الرومانية، وهي لغة عجمية شاعت بين السكان الأصليين قبل الفتح، وقد انبثقت عن اللغة اللاتينية الأم، وهي لغة سكان أوروبا في العصر الوسيط. وأصبحت هذه اللغة مجاورة للغة العربية في الحديث اليومي لأهل الأندلس¹⁸. فدخل المعجم الأعجمي على الاستعمال الشعري عند الوشاحين.

¹⁴ - عمر فروخ : " تاريخ الأدب العربي " ، ج4، ص:423.

¹⁵ - عمر فروخ : " تاريخ الأدب العربي " ، ج4، ص:423.

¹⁶ - عبد الإله ميسوم : المرجع السابق ، ص: 49.

¹⁷ - أحمد هيكمل : " الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة " ، ص: 42، نقلاً عن عبد الإله ميسوم :

المرجع السابق ، ص:50.

¹⁸ - ينظر : المرجع نفسه ، ص: 49-59.

وهذا ما جعل المستشرقين يصرون على إسبانية الموشح، وربط الصلة بين الشعر الإسباني القديم (تروبادور) وبين فن الموشح . ولعل هذا ما ميز طابع الغناء العربي حتى اليوم، وهو طابع الأغنية الإسبانية¹⁹، خاصة في بلاد المغرب .

وكانت الموضوعات التي يتناولها شعراء الجونكلير والطوربيون بعدهم تسمى "بالفجريات". وهي مقطوعات شعرية عرفها اللاتين باسم " ألباتا". وهي تقال في افتراق الأحبة عند طلوع الفجر. وهي شبيهة بالمواضيع التي طرقها الوشاحون. ولذلك، وعلى عكس شعر المشاركة الذين نظموا في وصف الحل والترحال، وبكوا واستبكوا الأطلال، فإن الموشحات خلت من هذه المعالم، وذكرت أعيادا، ومواسم لم توجد إلا في التقويم اللاتيني²⁰.

وشعر الطروبيين "غنائي منسجم الألفاظ، حسن التوقيع. غير أنه ضعيف الميزة الأدبية، في معانيه الهزيلة وألفاظه المكرورة. وله أسماط وأجزاء لا توافق الأوزان أحيانا، ولا تلتزم فيه القافية كما تلتزم في الشعر، وإنما تلتزم في كل ثلاثة أجزاء أو ستة وفي نهاية كل سمط، ويُراعى في التزامها التي وردت فيه أولا. فهي من هذا القبيل أشبه شيء بالموشحات"²¹.

وأشار بطرس البستاني إلى أن العرب قد أخذوا فكرة التحرر من الأوزان عن الإسبان، فكان اتفاق منظومات التروبادور والموشحات في أكثر النواحي يحمل على الاعتقاد بذلك التأثير²².

¹⁹ - ينظر: عمر الدقاق : " ملامح الشعر الأندلسي " ، منشورات جامعة حلب ، ط3، ص:332.

²⁰ - ينظر: مصطفى عوض الكريم: " فن التوشيح "، ص 110.

²¹ - المرجع نفسه، ص: 108-109.

²² - ينظر: بطرس البستاني: " أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث"، بيروت: دار الجيل، ط3، 1997، ص:83.

2- النظرية المشرقية :

خلافًا لما سبق، جاءت هذه النظرية بأدلة وبراهين تعلن بها أصلاً جديداً للموشح، ألا وهو المشرق العربي. بل اعتبرت الموشح تطويراً لشعر مشرقى عرف ونظم قبل أن يعرفه الأندلسيون. وقد بلغ الأمر بأصحاب هذه النظرية إلى حد القول بأن الموشح فن مشرقى. ومن أدلتهم على ذلك ما يلي:

أ - فن التسميط:

كان نظم المسمطات أكبر حجة للدكتور مصطفى الشكعة والدكتور مصطفى عوض الكريم وغيرهما في إثبات مشرقية أصل الموشح²³.

والتسميط هو التنويع في التقفية داخل البيت الشعري. وقد اشتهر هذا النوع من النظم في القرن الثاني الهجري في المشرق العربي. على أن بعض المؤرخين أرجع بداياته الأولى إلى العصر الجاهلي²⁴. ونسبوا بعضاً منه إلى امرئ القيس، كقوله: ²⁵

توهّمت من هند معالم أطلال عفاهنّ طول الدهر في الزمن الحالي
مرايع من هند عفت ومصايفُ يصيح بمغناها صدّى وعوازفُ
وغيرها هوج الرياح العواصفُ وكل مسفّ ثم آخر رادفُ
بأسحج من نوء السماكين هطال

ويعد هذا أقدم خروج على نظام القافية في القصيدة العربية. وقد سمّاها الدكتور مصطفى الشكعة بالموشحة²⁶، بعد أن أدخل عليها تغييراً فجاءت على النحو الموالي²⁷

²³ - ينظر: مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه"، بيروت: دار العلم للملايين، ط4،

1979، ص: 386-401، مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص: 50-55.

²⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 50.

²⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 52.

²⁶ - ينظر: مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه"، ص: 399.

²⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص: 398.

مربع من هند خلت ومصايف
يصيح بمغناها صدى وعواصف
وغيرها هوج الرياح العواصف
وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

" فمع إزاحة " وكل مسف ثم آخر رادف"، وإلحاقه بالأسماط الأخرى يصبح الدور
مكوناً من أربعة أسماط بدل الثلاثة. ويوضع غصن لامي القافية مكان الشطر الذي
أصبح سمطاً وبذلك نكون أمام موشحة كاملة لا ينقصها إلا التسميات المقدرة من
الأندلسيين²⁸. ويؤكد مصطفى الشكعة ما ذهب إليه ابن بسام في كتابه "الذخيرة"
حينما قال: "فلما جاء الرمادي أكثر من التضمين في المراكز. ثم جاء عبادة بن ماء
السما فاعتمد مواضع الوقف في الأغصان يضمنها"²⁹. والمفهوم من هذا الكلام أن
الموشحات الأولى لم يكن فيها تضمين ولا أغصان، أما المراكز فقد عرفت قبل أن
يضع عبادة بن ماء السما التضمين والأغصان وأوقفهما في الموشحات³⁰.

ويشير الدكتور مصطفى عوض الكريم إلى شعر الترقيص وتشجيع المحاربين
والمرافقين للقوافل، وإلى شعر الابتهاج الذي يُعد منبع التسميط، كقول الخنساء ترثي
أخاها. و من بعض ما نظمت :³¹

حَمال ألوية، هبّاط أودية شهاد أندية، للجيش جرّار

²⁸ - مصطفى الشكعة : " الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه "، ص: 400.

²⁹ - ابن بسام: " الذخيرة من محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب ليبيا، (د. ط.)،
1978، ق1، ج1، ص: 468-470.

³⁰ - ينظر: إحسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين"، بيروت: دار الثقافة، ط4،
ص 229.

³¹ - ينظر: مصطفى عوض الكريم: فن التوشيح "، ص 51.

وقد ذهب " هارتمن " ومعه " فرايتاغ " إلى القول: " بأن الموشحات من حيث نظامها الموسيقي ليست إلا تكريسا لظاهرة التسميط " ³².

ومن أبرز الشعراء الذين برعوا في فن التسميط ومهدوا لظهور الموشح في رأي أصحاب هذه النظرية: الوليد بن يزيد، الملك الشاعر، والذي أجمعت جل المراجع على شهرته في نظم المسمطات ومن ذلك قوله واصفا لهوه وعبته ³³ :

أحب الغناء، وشرب الطلاء وأنس النساء ورب السور
ودل الغواني، وعزف القيان بصنح يمانى قبيل السحر
فأما الصباح، فهمي القداح وخيل شواح، جياذ خضر
وأما العشي، فأمر جلي وقتل الكمي بعضب ذكر

ونسجل هنا خروجا على نظام القافية في القصيدة التقليدية، حيث توحد القوافي في كل جزءين من صدر البيت الشعري ³⁴، وقد اعتبر صاحب الأغاني أن مانظمه الوليد على بحر المجتث، وهو بحر لم يسبق للجاهليين أن نظموا فيه ما عدا أبيات منفردة ³⁵. و" لو صحت نسبتها إليه (أي القطعة السابقة)، لاعتُبر من أقدم الشعراء الذين نظموا في هذا النوع الجديد من نظام القافية " ³⁶.

ويقول في نوع الأرجوزة المزدوجة التي في كل قسم منها قافية معينة ³⁷:

الحمد لله ولي الحمد أحمد في يسرنا والجهد

أشهد في الدنيا وما سواها أن لا إله غيره إلهها

ويقول في نمط شعري آخر مفطر في السهولة ³⁸:

³² - المرجع السابق، ص 100.

³³ - ينظر: مصطفى الشكعة: " الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه "، ص: 388.

³⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص 387.

³⁵ - حكمت علي الأوسي: " فصول في الأدب الأندلسي "، ص: 168.

³⁶ - المرجع نفسه، ص: 168.

³⁷ - أبو الفرج الأصفهاني: "الأغاني"، بيروت: دار الثقافة، ط5، 1981، م7، ص: 57.

يا سليمى يا سليمى كنت للقلب عذابا
يا سليمى ابنة عمي برد الليل وطابا
أيمما واش وشى بي فاملئي فاه ترابا

وأصبح التطور الذي يشهده الشعر العربي في المشرق إبان هذه الفترة ميزة غالبية على جل ما نظمته الشعراء. "ومثل هذا الشعر بتقسيماته، إن لم نقل بأسمائه المجزوءة، لا ينبغي أن يهمله الباحث في شأن الموشحات نشأة وإبداعا. وإذا كانت اللغة السهلة القرية من أفهام الشعب سمة واضحة من سمات الموشحة إلى المدى الذي يجعلها مليحة مستحبة إذا ما تضمنت خرجتها ألفاظا عامية، فإن الوليد وصحبه قد سبقوا إلى ذلك في كثير مما أنشأوا"³⁹.

وفي هذا المعنى يقول الدكتور شوقي ضيف متحدثا عن الشعراء الأندلسيين: "قلما وُجد عندهم شاعر متفلسف، يتخذ له منهاجا واضحا في عمله. إنما هم ينقلون ويلفقون، لا عن انتخاب، بل كما يقع لهم، وكما يعلمهم أساتذتهم من المشاركة. وقد أخذوا يصنعون بالموشحات والأزجال ما صنعوه بقصائدهم من الخلط فيها بين صياغات مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع، وظلوا يستمدون في دلالاتها وصياغاتها من معين المشرق ومذاهبه الفنية"⁴⁰.

واستمرت موضة التنويع في القوافي والأوزان، واشتهر شعراء كثر خاضوا هذا الميدان ومهدوا في رأي أصحاب هذه النظرية لظهور الموشحات. منهم: "رزين بن زند الملقب برزين العروضي، لأنه تجاوز حدود العروض"⁴¹.

38 - المصدر السابق، ص: 40.

39 - مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه" ص: 388.

40 - شوقي ضيف: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، القاهرة: دار المعارف، ط8، ص456.

41 - حكمت علي الأوسي: "فصول في الأدب الأندلسي"، ص 170.

"وكان التنويع في القوافي داخل المزدوجات والمخمسات وفي نظم أبان بن عبد الحميد اللاحقي لكليلة ودمنة، برأي يوهان فك مطابقا للمثنوي الفارسي تمام المطابقة"⁴².

ويذكر ابن النديم عن أبان اللاحقي أن أكثر شعره مزدوج. ونجد أيضا بشر بن المعتمر الذي نظم فيه ⁴³.

وهناك إبراهيم الفزاري الذي له موضوع تعليمي خاص بعلم الفلك وهو مزدوج مكون من ثلاثة أبيات متعددة القافية على بحر الرجز ⁴⁴.

كما نسب يوهان فك إلى بشار بن برد محاولات في نظم المزدوج والموشح ⁴⁵. ولعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن مساهمة مهمة يقول عنها الدكتور مصطفى الشكعة: "يطلع على معاصريه بمنظومة إذا ما غضضنا النظر قليلا عن المسميات والتقسيمات التي أطلقت على أجزاء الموشح الأندلسي كانت موشحة بحق"⁴⁶. يقول فيها: ⁴⁷

قولي لطيفك ينثني	عن مضجعي عند المنام
عند الرقود عند الهجوع	عند الهجود عند الوسن
فعسى أنام فتتطفئي	نار تأجج في العظام
في الفؤاد في الضلوع	في الكبود في البدن
جسد تقلبه الأكف	على فراش من سقام
من قتاد من دموع	من رقود من حزن

⁴² - المرجع السابق، 170.

⁴³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 170.

⁴⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 170.

⁴⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 170.

⁴⁶ - مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه" ص: 388.

⁴⁷ - المرجع نفسه، ص: 394.

أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من دوام

من معاد من رجوع من وجود من ثمن

وهناك أبو الحسن أحمد بن سعد الاصفهاني المشهور بالكاتب، والذي بنى مقطوعة من خمس قواف . وأحيانا تختفي القافية الأولى في اللفظة الأولى من كل بيت لتنصهر في بنائه دون أن تخل بقافية البيت الثاني ليصبح بأربع قواف. يقول أبو الحسن في تلك المقطوعة: ⁴⁸

وبلدة قطعها بضامر خفيدد عيرانه ركوب

وليلة سهرتها لزائر ومسعد مواصل حبيب

وقينة وصلتها بطاهر مسود ترب العلى نجيب

⁴⁹ وقهوة باكرتها لتاجر ذي عند في دينه وحبوب

وبعد حذف القافية الأخيرة يمكن قراءة المنظومة على النحو التالي: ⁵⁰

وبلدة قطعها بضامر خفيدد

وليلة سهرتها لزائر ومسعد

وقينة وصلتها بطاهر مسود

وقهوة باكرتها لتاجر ذي عند

وتقرأ بحذف القافيتين الأخيرتين على الشكل التالي: ⁵¹

وبلدة قطعها بضامر

وليلة سهرتها لزائر

وقينة وصلتها بطاهر

⁴⁸ - المرجع السابق، ص: 395.

⁴⁹ - ياقوت الحموي: "معجم الأدباء"، دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1980، م2،

ص: 44-45.

⁵⁰ - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "الموشحات والأزجال"، مصر: دار المعارف، دون طبعة، 1965، ص: 33.

⁵¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص33.

وقهوة باكرتها لتاجر

والملاحظ أنه رغم الحذف الذي أحدث في جسم المنظومة، فإنه لم يخل بمعناها أو يضطرب. وبذلك أصبحت شبيهة بما تحويه من أشطر، بالدور المركب في الموشحة الأندلسية، متقاطعة بذلك مع موشحة لابن نزار يقول منها:⁵²

اشرب على نغمة المثاني ثاني
ولاتكن في هوى الغواني واني
وقل لمن لام في المعاني عاني

ومن أولئك الشعراء الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي الذي برز في المغرب ثم بالقاهرة. وهو قريب العهد من عبادة بن ماء السماء. يقول فيه الدكتور مصطفى الشكعة: "إن تميما من وجهة نظرنا يشكل الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة لهؤلاء الشعراء"⁵³، أي من الشعراء الذين مهدوا للتوشيح، ابتداء بالوليد بن يزيد وانتهاء بتميم بن المعز⁵⁴.

ولتميم مسمطة يقول منها:⁵⁵

دم العشاق مطلول ودين الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول ومبدي الحب معذول
فبح أيها الكاتم

ويجزم الدكتور مصطفى الشكعة بأن هذه المقطوعة تمثل ظهورا رسميا للموشحة معنى وروحا. ولم يبق للأندلسيين سوى الشكل يقيمونه ويقسمون الأجزاء ويضعون الأسماء⁵⁶.

⁵² - مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه"، ص: 397.

⁵³ - المرجع نفسه، ص 398.

⁵⁴ - المرجع نفسه، ص 398.

⁵⁵ - الثعالبي: "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، ط2، م1،

ص 441.

وقد حاول بعض المستشرقين إثباته أصل الموشح منهم مارتن هارتمن الألماني ونيكل الأمريكي، فهو عندهما لا يتعدى كونه تطويرا لشعر أو لأنواع من الشعر صيغ ونظم في بلاد الشام والعراق⁵⁷. ويرى نيكل أن الموشحات الأولى "لم تكن إلا مقطوعات لأبي نواس وضعت أبياتها في ترتيب مغاير"⁵⁸.

وكان الثراء في الأوزان والقوافي كثيرا ومتنوعا في مقطوعات شعرية حاولت الانفلات في بعض الأحيان من نمطية القصيدة التقليدية، "فوجد أبا نواس يلتزم في نظم القوافي التزاما داخليا حتى إذا أتى إلى البيت الأخير خالفها عن سابقاتها"⁵⁹ يقول جامعا بين الخمر والغزل⁶⁰:

سلاف دن كشمس دجن كدمع جفن كخمر عدن
طبيخ شمس كلون ورس ريب فرس حليف سجن
رأيت علجا، يباطرنجا لها توجى فلم يثن
حتى تبدت وقد تصدت لنا وحلت حلول دن

وهذه موشحة - على حسب قول د. مصطفى الشكعة - في الوزن والموضوع، بل هي من أرقى الموشحات إذا ما صيغت لها أقفال⁶¹.

وقد أدخل أبو نواس العامية في شعره الذي منه ما يلي⁶²:

ولقد قلت للمليحة قولي

⁵⁶ - مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه"، ص: 398.

⁵⁷ - ينظر، مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص: 100.

⁵⁸ - المرجع نفسه، ص: 100.

⁵⁹ - مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه"، ص: 391.

⁶⁰ - ديوان أبي نواس، تحقيق وشرح إسكندر آصاف، القاهرة: دار العرب للبستاني، دون طبعة، ص: 333-334.

⁶¹ - ينظر: مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه"، ص: 391-392.

⁶² - ابن رشيق: "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1983، ج1، ص 218.

من بعيد لمن يحبك
إشارة قبله
فأشارت بمعصم ثم قالت
من بعيد خلاف قولي
إشارة لا لا
فتغنيت ساعة ثم إني
قلت للبغل عند ذلك
إشارة إمش

فنحن نلاحظ تنوعاً في الأوزان، وتجاوزاً كبيراً أقدم عليه الشعراء المشاركة. ونجد لذلك أمثلة كثيرة، من ذلك ما نعثر عليه في قصيدة ألقاها آدم بن عبد العزيز على مسمع الخليفة العباسي المهدي، يقول منها⁶³:

اسقني واسق خليلي في مدى الليل الطويل
قهوة صهباء صرفاً سبيت من نهر بيل
قل لمن يلحاك فيها من فقيه أو نبيل
أنت دعها وارج أخرى من رحيق السلسيل

وتُعد مقطوعة آدم بن عبد العزيز موشحة، حسب قول الدكتور مصطفى الشكعة، إذا جُعل البيتان الأخيران "خرجة"، يقول فيها⁶⁴:

أنت دعها وارج أخرى من رحيق السلسيل
نعطش اليوم ونسقى في غد نعت الطلول

وهناك منظومة لسلم الخاسر يمدح فيها موسى الهادي الذي آل إليه الحكم بعد المهدي يقول فيها⁶⁵:

63 - مصطفى عوض الكريم: "الموشحات والأزجال"، ص: 33.
64 - مصطفى الشكعة: "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه"، ص: 389.
65 - المرجع نفسه، ص: 390.

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر ألوى المرر
 كم اعتسر ثم ايتسر وكم قدر ثم غفر
 عدل السير باقي الأثر خير وشر نفع وضر
 خير البشر فرع مضر بدر بدر والمفتخر
 لمن غبر

وقد جاءت هذه المنظومة مجزأة الأوزان وموحدة القوافي ويدل هذا على مقدرة الشاعر في ترويض البحور الشعرية بغية الحصول على السهولة التي تخدم فن الغناء أمام الخلفاء. ويشهد له الصولي بالسبق في التجديد على مستوى الوزن.⁶⁶
 كما يمكن أن تقرأ الاييات على النحو الآتي⁶⁷:

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر
 كم اعتسر ثم ايتسر وكم قدر
 عدل السير باقي الأثر خير وشر
 خير البشر فرع مضر بدر بدر
 لمن غبر

وإذا ما تم حذف الشطر الثالث يبقى شطران دون اختلال المعنى⁶⁸.
 وتبعاً لهذا الاستحداث يكون أبو العتاهية ممثلاً حياً لهذا النوع من التجديد، خاصة وأنه عُرف بخروجه العلني عن قانون العروض الخليلي. يذكره صاحب الأغاني فيقول: " قال محمد بن أبي العتاهية: سئل أبي: هل تعرف العروض؟ فقال، أنا أكبر من العروض. وله أوزان لا تدخل في العروض "⁶⁹. يقول من بعض اشعاره:

⁶⁶ - المرجع السابق، ص: 390.

⁶⁷ - المرجع نفسه، ص: 391.

⁶⁸ - المرجع نفسه، ص 391.

⁶⁹ - أبو الفرج الاصفهاني: "الأغاني"، ط4، ص15

للمنون دائرا ت يدرون صرفها هن ينتقينا واحدا فواحدا

وكان يضع الأشعار على الألحان الاعجمية. ويذكره ابن قتيبة فيقول: "كان
لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعرا موزونا يخرج به عن أعاريض الشعر
وأوزان العرب"⁷⁰.

ويبدو لنا، أنه ومنذ هذا العصر بدأت تنهياً العقول لقبول ثورة حديثة على
مستوى الوزن والقافية، وتحاول النهوض بالشعر العربي من ثقل الميزان القديم ورتابته
وتلفه بشيء من الحرية والانطلاق. وهذا ما لاحظناه عند بعض الشعراء الذين
انتهجوا هذا المجال.

وإذا كان فن التسميط حجة ساقها بعض الباحثين لإثبات مشرقية الموشح،
فهناك حجة أخرى تتمثل فيما يلي:

ب- فن الغناء

اعترف بفضل الغناء المشرقي في نشأة الموشح، حيث ذكر الدكتور حكمت علي
الأوسي أن المزدوج والدوبيت أو الرباعي الذي تتحد مصاريعه في القافية ما عدا
المصراع الثالث بداية للموشح الذي سينظم من بعد. مع ذكر أن المزدوج والدوبيت
وضعا للغناء بعد التلحين⁷¹.

وأكد "يوهان فك" أن بشار بن برد حاول النظم في المزدوج والدوبيت أو
الرباعي. ويرى أنه يقترن بشار الذي كان له أثر عظيم في الشعر الفارسي⁷².
على أن المستشرق "جب" يقول: "وربما كان للتطور الخاص للموسيقى العربية
في الأندلس دوره [في ظهور الموشحات عند المغاربة دون المشاركة]"⁷³.

⁷⁰ - ابن قتيبة: "الشعر والشعراء"، بيروت: دار إحياء العلوم، ط5، ص538.

⁷¹ - حكمت علي الأوسي: "فصول في الأدب الأندلسي"، ص169.

⁷² - ينظر: المرجع نفسه، ص:170.

⁷³ - مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص89.

ومن نافلة القول أن الموسيقى لصيقة بالشعر: تقوم له ومن أجله، والشعر دون إيقاع لا ينفك كونه هذيانا مجهول المعنى، لا طائل منه غير إبراز ما يعتور النفس من آلام عميقة وعقد متأصلة، حيث تغيب المسحة الفنية والجمالية التي تضيفها الموسيقى على الشعر. " فالإيقاع و الوزن غريزيان في الفرد الشاعر لذلك ارتجل، ومن ارتجاله ولد الشعر. وهذا ما قاله أرسطو حينما رسم معادلة الشعر على النحو الآتي:

$$\text{الوزن} + \text{المحاكاة} + \text{التخييل} = \text{الشعر}^{74}$$

وقد عرف الشعر، ومنذ العصر الجاهلي، طريقة إلقاء خاصة تمثلت في الإنشاد الترنمي الذي يطرب النفس قبل العقل. وضُرب للنابغة خيمة للاستفادة والاستمتاع معا، وليعرف مواطن الضعف في قصائده، وذلك بعد أن تغنيه القينات⁷⁵.

وكانت التراكمات الفنية التي ورثتها الموسيقى العربية عبر مراحل تطورها، حيث أنها انتقلت من الفردية إلى مجالس رسمية تقام في قصور الخلفاء والأمراء، وغدا التنافس بين الملحنين سائرا، وبصورة حثيثة، وتسابق السلاطين إلى جلب المغنين والمغنيات من بقاع مختلفة، كان هذا ما شجع حركة الغناء وساعدها على النضوج والشهرة⁷⁶.

وحدث أن هز زرياب أركان الغناء العربي بنقلته النوعية فيه، فكان سحرها ماثلا على الموشح الأندلسي وخاصة النوبة الموسيقية التي اتبع فيها المطربون نمطا معيناً في الغناء، إذ يغني مجموعة منهم من الشعر بقواف ووزن معين يخالفه من يأتي بعده من المغنين⁷⁷.

⁷⁴ - عثمان مواني: "في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم"، القاهرة؛ دار المعرفة الجامعية؛ دون طبعة، 1995، ج1، ص 29.

⁷⁵ - ينظر: أحمد أمين: "في النقد الأدبي"، الجزائر: مطبعة الرغاية، بدون طبعة، ص: 325.

⁷⁶ - ينظر: عبد الإله ميسوم: "تأثير الموشحات في التروبادور"، ص 70.

⁷⁷ - ينظر: حكمت علي الأوسي: "فصول في الأدب الأندلسي"، ص 171.

وهذا ما أوحى إلى الوشاحين "تطور الأشكال الشعرية والتفنن في بنائها، والتنويع في الأوزان، وأكثروا من الترصيع وزاوجوا في القوافي وبين الأَشْطَر والفقر وزادوا في أجزاء البيت الشعري فنظموا منه المسدس والمسيب والمثنى"⁷⁸ وأضاف أصحاب هذه النظرية حجة ثالثة لإثبات مشرقية الموشح. وهي: نسبة الموشح المعروف، الذي مطلعته:

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

إلى ابن المعتز، الشاعر العباسي، يقول الأستاذ كامل كيلاني: "لو لم يخترع الأندلسيون الفن المسمى بالموشحات لاخترعه المشرقيون، فقد كان حتماً أن يؤدي الغناء ومجالسه في المشرق إلى نفس هذه النتيجة التي انتهى إليها في الأندلس. وفي موشحة ابن المعتز الرائعة أكبر دليل على صحة ما نقول؛ فقد أنشأ ابن المعتز تلك الموشحة الفذة في القرن الثالث، أي: في نفس القرن الذي اخترع فيه مقدم بن معافر موشحاته في الأندلس"⁷⁹.

وتستمر التأكيدات لمشرقية الموشح عند كثير من الباحثين الذين اتخذوا موشح "أيها الساقى" حجة لذلك.

ويرى الدكتور صفاء خلوصي أن "الموشح نشأ في المشرق لكنه تطور في المغرب. وبلغ ذروته في القرنين السابع والثامن للهجرة في العراق"⁸⁰. ويظهر إعجابه بموشح "أيها الساقى" فيقول: "إنه من نفس أمير، وإبداع رجل متفنن"⁸¹. وهناك رأي غريب لباحث اسمه أحمد حسني يقول فيه: "لا يوجد بين ظهرانينا أي مصدر يثبت لنا الزمن الذي نشأ فيه الموشح في اليمن، إلا أننا نستطيع أن نحدد

⁷⁸ - محمد سعيد محمد: "دراسات في الأدب الأندلسي"، ص 248.

⁷⁹ - يوسف عيد: "التوشيح في الموشحات الأندلسية، باب جديد في أوزان الموشح ونغماته"، بيروت: دار

الفكر اللبناني، ط1، 1993، ص:9.

⁸⁰ - المرجع نفسه، ص 10.

⁸¹ - المرجع نفسه، ص 10.

القرن الثالث الهجري تاريخاً له، بدليل ظهوره بعد ذلك في القرن الرابع بالتحديد في الأندلس، على يد رجل ضرير يدعى محمد بن حمود القبري، نسبة إلى قبره..والذي أراه أن "القبري" تصحيف من "القيري"، وآل القيري مشهورون بخولات الطيال شرقي صنعاء⁸². ويتابع أحمد حسني قائلاً: "أما الموشح، فقد تطور شيئاً فشيئاً على يد زرياب وغيره من الموسيقيين، وبفضل ابن القزاز وابن ماء السماء وغيرهما من شعراء الأندلس. وقد انتقل في غضون القرن السابع الهجري إلى رحاب ابن سناء الملك المصري"⁸³.

والظاهر لنا أن كلتا النظريتين السابقتين حاولت إبانة موقف معين من أصل الموشح، وبدا التضارب والاختلاف واضحاً بينهما؛ فكل واحدة منهما جمعت حججاً وأدلة لدعم ذلك الموقف، مع وجود بعض الثغرات فيها. لكن هذا الاحتدام، والصراع بين الباحثين الذي أثير حول أصل الموشح، دليل ناصع على أهمية هذا الفن وعلو قيمته الفنية والأدبية.

3- النظرية الأندلسية

يرى أصحاب هذه النظرية أن فن الموشح أندلسي أصلاً ومنشأً، ابتدعه الأندلسيون وأكثروا النظم فيه، حتى لم تعد الأندلس تُذكر إلا ويُذكر بجانبها الموشح كعلامة بارزة في تاريخها الأدبي الحافل.

وللقائلين بالأصل الأندلسي لفن التوشيح مجموعة من الحجج منها ما يلي :

أ- أقوال القدماء

نقف في كتب القدماء على عدة أقوال تناولت نشأة الموشح. وقد ذكر أصحابها الأصل الأندلسي لهذا الفن، وأكدوا - وهم علماء موثوق بآرائهم - أن الموشح أندلسي المنشأ. ومن أولئك العلماء:

⁸² - المرجع السابق، ص 10 .

⁸³ - المرجع نفسه، ص 10 .

1- ابن دحية:

تحدث ابن دحية عن الموشحات فقال: " والموشحات هي زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق"⁸⁴.

وفي قوله هذا تنويه بمكانة الموشحات بين غيرها من الفنون الشعرية؛ فهي خلاصة الشعر ولبه، وهي ما سبق به الأندلسيون المشاركة، فصار هؤلاء مقلدين لهم.

2- ابن خاتمة:

قال ابن خاتمة في كتابه "مزية المزية": "وهذه الطريقة من مخترعات أهل الأندلس ومبتدعاتهم الآخذة بالأنفس؛ هم الذين نهجوا سبيلها، ووضعوا محصولها"⁸⁵. فهو يعيد فضل اختراع الموشح إلى أهل الأندلس، وذلك بتعبير جلي و واضح.

3- المقرئ:

ذكر المقرئ أن الموشح من اختراعات أهل الأندلس "التي استحسناها أهل المشرق وصاروا يتزعمون مترعهم"⁸⁶.

4- ابن بسام:

في أثناء حديثه عن الموشح قال ابن بسام: "وكانت صنعة التوشيح، التي نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها، غير مرموقة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام

⁸⁴ - ابن دحية: "المطرب من أشعار أهل المغرب"، ص 186، نقلا عن: مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص 93.

⁸⁵ - المقرئ: "أزهار الرياض، في أخبار عياض"، الرباط: صندوق إحياء التراث الإسلامي، (د. ط.)، 1978، ج 3، ص: 252.

⁸⁶ - المقرئ: "نفح الطيب"، تحقيق إحسان عباس، بيروت؛ دار صادر، 1968، م 3، ص 123.

عبادة هذا منادها، وقوم ميلها وسنادها . فكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه، ولا أخذت إلا عنه. واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته، وذهب بكثير من حسناته "87". وإذا كان ابن بسام يقول بأن الأندلسيين نهجوا طريقة التوشيح، فإنه يرى أن فضل معرفة حقيقتها، وبروزها كفن واضح المعالم، واشتهارها، لم يكن إلا لأندلسي مبدع، هو: عبادة بن ماء السماء.

على أنه من الملاحظ أن ابن بسام يردف قائلاً: "وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا، واخترع طريقته - فيما بلغني - محمد بن محمود القبري الضرير"88. وهذا دليل على أن صياغة أولى معالم الموشح وقواعده تعود إلى أديب أندلسي الأصل هو "محمد بن محمود الضرير" .

5- ابن خلدون :

لابن خلدون في مقدمته كلمة بين فيها النشأة الأندلسية للموشح، وذلك حيث قال: "وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم، وتهدبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه الموشح"89.

6- ابن سناء الملك:

لابن سناء الملك كلمة جامعة وشفافية في الأصل الحقيقي للموشح يقول فيها: "والموشحات مما ترك الأول للآخر، وسبق بها المتأخر المتقدم، وأجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وغادر بها الشعراء من متردم. صار المغرب بها مشرقاً

87 - ابن بسام الشنتري: "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، ق1، م2، ص 468-470.

88 - المصدر نفسه، م2، ص 468-470.

89 - عبد الرحمان بن خلدون: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، المقدمة، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط3، م1، ص 1137-1138.

لشروقتها بأفقه، وإشراقها في جوه، وصار أهلها بها أغنى الناس لظفرهم بالكتر الذي ذخرتهم لهم الأيام، وبالمعدن الذي نام عنه الأنام⁹⁰.

فهذا اعتراف من مشرقي المولد والنشأة. وقد لا نجد قولاً أكثر بياناً من قوله؛ فهو يؤكد أسبقية أهل المغرب إلى اختراع الموشح، ويعدّه من مبتدعائهم الفنية التي أحدثت ثورة في عالم القصيدة العربية. كما أن ابن سناء الملك يعزو تقصيره في نظم الموشحات إلى عدم تربيته ونشأته في كنف بيئة أندلسية خالصة، وذلك إذ يقول: "وكيفما كان، فموشحاتي، تكون لتلك الموشحات (الأندلسية) كظلمها وخيالها؛ وأشهد أنها ناقصة على قدر كمالها. واعذر أحاك، فإنه لم يولد بالأندلس، ولا نشأ بالمغرب، ولا سكن بإشبيلية، ولا أرسى بمرسية، ولا عبر على مكناسة"⁹¹. وهذه حجة أخرى تدعم قوله بأندلسية الموشح.

ب- المناخ الأندلسي:

يرى أصحاب هذه النظرية أن البيئة الأندلسية كانت أكثر ملاءمة لنمو نوع فني جديد كالموشح، وذلك نظراً إلى توفر مجموعة من العوامل المساعدة، كالعامل الطبيعي، والعامل السياسي، والعامل الفني. وفيما يلي بيان لذلك مدعوماً بشواهد من أقوال العلماء.

1 - العامل الطبيعي :

أثرت البيئة الطبيعية الجذابة على الشعراء وكانت مصدر إلهام لهم؛ فبيئة البحر المتوسط تختلف عن البيئة الشرقية التي كان الشعراء يعيشون فيها؛ "فمناخ شبه

⁹⁰ - ابن سناء الملك: "دار الطراز في عمل الموشحات"، تحقيق جودة الركابي، دمشق: دار الفكر، ط 2،

1977، ص 30-31.

⁹¹ - المصدر نفسه، ص 52-53.

الجزيرة الإيبيرية حلقة وصل بين قارتين، جعل التأثيرات الطبيعية الأوروبية تغطي في بعض الأقاليم، بينما سادت المؤثرات الإفريقية في الأقاليم الأخرى . ونبع عن هذا الواقع أن أصبح جزء "من إسبانيا ذا طابع أوربي واضح وصار الجزء الآخر متميزا بطابع إفريقي خاص" ⁹².

وقد أدى هذا التنوع الطبيعي إلى تنوع في الفنون الأدبية سواء في الموضوعات أو في البناء الشكلي لها.

وقد وُصفت الأندلس "بأنها شامية في طبيعتها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستهوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبالها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها" ⁹³. ويظهر هذا التنوع الخصب في مجالات عدة حتى أصبحت مدن الأندلس مختصة، كل واحدة منها، بنوع أدبي معين. "فكانت أشعار الروضيات ببلنسية وشرق الأندلس، وكثرت الموشحات والأزجال في إشبيلية لتخصصها في الغناء وآلات الطرب، وظهرت قصائد وصف الحيتان وعواصف البحر في شرق الأندلس دون غيرها لنشاط موانئه للتجارة والصيد البحري." ⁹⁴ وهكذا نشطت الحركة الأدبية الأندلسية على مستويات مختلفة .

وقد كثرت في الأندلس الرياض والأودية، وكانت طبيعتها الخلابة "الإطار الذي كان الشاعر يقضي فيه ساعات لهوه ومتعته وسروره. ويبدو أن عادة الخروج، لا سيما في الفصول الملائمة، إلى خارج المدينة وإلى المتزهات والحقول والبساتين، كانت شائعة جدا لدى الأندلسيين" ⁹⁵. فكانت مجالس الشراب واللهو في أحضان

⁹² - حكمت علي الأوسي: "الأدب الأندلسي في عصر الموحدين"، ص: 28 .

⁹³ - الحميري: "الروض المعطار"، تحقيق ليفي بروفانسال، ص3. نقلا عن عبد الإله ميسوم : المرجع السابق ، ص : 46 .

⁹⁴ - حكمت علي الأوسي: "الأدب الأندلسي" ص 70.

⁹⁵ - صلاح خالص: "إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها"، بيروت: دار الثقافة، دون طبعة، ص 105 .

الطبيعة محفزا على ركوب بحر الحرية، فعمت ظاهرة القفز فوق الحدود العروضية المعروفة منذ أن خط الخليل أولى دوائرها. وهذا كله مهد لانبلاج فلق صبح الموشح كفن له خصائص التحرر على مستوى الوزن والقافية. قال الوزير أبو جعفر بن سعيد يصف الحوز وهو متتره بغرناطة :⁹⁶

ذهبت شمس الأصيل فضة النهر
أي نهر كالمدامه
صير الظل فدامه
نسجته الريح لामه
فهو كالعضب الصقيل حف بالسمر
مضحكا ثغر الكمام
مبكيا جفن الغمام
منطقا ورق الحمام
داعيا إلى المدام
فلهذا بالقبول خط كالسطر

فقد أبدعت يد القدرة الربانية في رسم معالم هذا المتتره، ونجح الوشاح الأندلسي في تفننه الشعري، حتى أنه أخذ من الحروف أسماءها ومن الكلمات أكثرها معنى ودلالة، فكانت الموشحة سمفونية موسيقية راقية لها من الإيقاع النغمي المعبر، الكم الذي أغناها عن الحاجة إلى التلحين وشحذ القوالب الغنائية. كما شجعت هذه الطبيعة على خصب في العواطف وانسياب في الألفاظ، فاتسعت مواضيع الغزل ووصف لحظات الوصل والفراق ممزوجة بنشوة خمر معتقه،

⁹⁶ - ابن سعيد : "المغرب في حلى المغرب"، القاهرة : دار المعارف ، ط2، ج2، ص 103 .

فكان هذا الارتباط الجمالي بين مجالس الشراب وغرض الغزل منضويا تحت لواء الطبيعة العام⁹⁷، يقول ابن زهر من موشحة⁹⁸ :

شمس قارنت بدرا راح ونديم
أدر كؤوس الخمر عنبريه النشر إن الروض ذو بشر
وقد درع النهار هبوب النسيم
وسلت على الأفق يد الغرب والشرق سيوفا من البرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيوم
ألا إن لي مولى تحكم فاستولى أما إنه لولا
دموع تفضح السرا لكنت كتوم
أنى لي كتمان ودمعي طوفان شبت فيه نيران

فإذا تمعنا قليلا في الموشحة السابقة ألفينا نوعا من التجديد من حيث المضمون والشكل أيضا؛ فيظهر للوهلة الأولى تنوع في القافية يوحي بدلالة عجيبة تكاد الحروف فيها تنطق، قبل تنسيقها في كلمات لها معنى. وقد أضاف ذاك البناء الخطي المحدث والذي رسمه الوشاحون الأندلسيون في توازي الأشرطة وترتيبها بصورة مغايرة للقصيدة العربية التقليدية، كما لو أن الطبيعة منحت انسجامها المنتظم لروح الوشاح حتى تبعث فيه القدرة على الاختراع والإبداع. وهذا يذكرنا بتعاليم المدرسة التكعيبية الحديثة في عالم الفن التشكيلي، والتي أرسى أولى أركانها الفنان "سيزان" فغدا "العالم طبيعة معمارية، حتى الإنسان هو بناء من الخلايا، وإن كل خلية تنضغط مع الأخرى من جوانبها فيظهر شكل المكعب"⁹⁹. فهندسة الموشح لم تكن بطريقة

97 - ينظر: فوزي سعيد عيسى: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، القاهرة: دار المعرفة

الجامعية، دون طبعة، 1990، ص 8.

98 - ابن سناء الملك: "دار الطراز" ص 60-61

99 - زكي نجيب محمود: "في فلسفة النقد"، بيروت: دار الشروق، ط 1، 1979، ص: 10.

عشوائية، لكن جاءت من لدن عقلية فاعلة وملمة بكل دقائق العملية الفنية وبخبرة وقدرة متميزتين .

فالعامل الطبيعي كان بارز الأثر في ظهور جنس أدبي جديد هو الموشح؛ إذ أن "سلسلة حياة الأجناس لا تفهم، إلا بالرجوع إلى البيئة الطبيعية التي تلعب فيها ظروف المناخ و طوبوغرافية الأرض والعلاقات بين اليابس والماء والتاريخ الجيولوجي الطويل المدى أدوارا هامة من حياة وقد انحدرت منها حياة أخرى" ¹⁰⁰.

وهذا فتح المجال أمام الوشاحين الأندلسيين حتى "تكون لهم انطلاقة نحو التجديد الشعري شكلا ومضمونا، مع ما في ذلك من روح التنافس ومباراة المشرق، وبوحي من مظاهر الجمال الخلاب في وسطهم، وانسجاما مع واقع المجتمع والذوق الفني، فكانت إضافة موشحة تميزت بطابع الشخصية الأندلسية المناهضة للتقليد والتبعية" ¹⁰¹.

ومن غير المعقول أن نتصور أدباء نموا في جو طبيعي متنوع المناخات باقين على عهدهم القديم في المحاكاة. فهم سيعمدون حتما إلى الاستحداث واستكشاف عوالم أخرى على المستوى الأدبي .

وإذا كانت الطبيعة الأندلسية منبع التجديد، فإن العقلية العربية ومنها الأندلسية لها طابع ديناميكي فعال ومتكيف مع مختلف الأحوال المناخية. فإذا كانت الصحراء قد ساهمت في بناء قصيدة مشرقية متميزة بنفس طويل طول أفق الميدان الصحراوي، فإن تنوع طبيعة الأندلس بين الرطوبة والاعتدال أعطى الموشح تنوعا في القوافي والأوزان. وهذا ما حمل الدكتور شوقي ضيف على أن يقول: "وهكذا أصبح جمال الموشحة يقاس بقدرة الوشاح على أن تكون كل كلمة في موشحته نغمة حلوة

¹⁰⁰ - محمد زكي العشماوي: "الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد"، بيروت: دار النهضة العربية، دون طبعة،

ص 96.

¹⁰¹ - عبد الإله ميسوم: "تأثير الموشحات في التروبادور"، ص 62.

رشيقة وكأنما أعطتهم اللغة من نفسها كل ما تملك من نغمات وإيقاعات ليؤلفوا هذه العقود من الألفاظ، بل هذه الدرر من الأصوات التي تنهمر على سامعها ألحانا راقصة تشيع فيه نشوة من الفرح الموسيقي"¹⁰². فأين نجد مثل هذا التراكم العاطفي في غير أحضان الطبيعة الأندلسية ؟

2- العامل السياسي

ظهر الموشح في عهد ساد فيه نوع من الاستقرار السياسي إذ انضم تحت لواء عبد الرحمان الداخل، آخر أحفاد بني أمية أعداد كبيرة من المناصرين، وذلك بعد "قضائه على نفوذ الولاة، وحسمه للتراعات والفتن والمنافسات على الحكم، حتى ليتمكن القول: إن دولة الأمويين سقطت بالشرق العربي لتبعث من جديد في أندلس الغرب، وهي تتمتع بقوة الشباب وثروة الصناعة"¹⁰³.

وفي هذا العهد عاش مخترع الموشحات. فابن خلدون يذكر أن مخترعها هو "مقدم بن معافى القبري" من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني الذي امتد حكمه من 275 هـ إلى 300 هـ¹⁰⁴، والحميري يذكر أن مقدم من شعراء عبد الرحمان الناصر. وليس بين القولين فرق كما يقول الدكتور إحسان عباس، فهو يرى أن مقدم قد يكون شهد عهد عبد الله ثم بعض عهد الناصر¹⁰⁵. فيما يؤكد ابن بسام أن مخترع الموشحات هو محمد بن حمود القبري الضير حيث يقول: "وأول من صنع هذه الموشحات بأوزانها الجديدة بأفقنا واخترع طريقتها - فيما بلغني - محمد بن حمود القبري الضير"¹⁰⁶. ويميل الدكتور إحسان عباس إلى أن

¹⁰² - شوقي ضيف: " في النقد الأدبي " ، القاهرة: دار المعارف ، ط6، 1962، ص 105 .

¹⁰³ - عبد الإله ميسوم: "تأثير الموشحات في التروبادور " ، ص 47 .

¹⁰⁴ - ينظر: ابن خلدون: "المقدمة " ، ص 584.

¹⁰⁵ - ينظر: إحسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين"، بيروت: دار الثقافة،

ط3، ص228.

¹⁰⁶ - ابن بسام: "الذخيرة " ، ق1، ج2، ص468-470.

مخترع الموشحات هو الشاعر الذي ذكره ابن بسام وذلك لأن إعاقته هي التي كانت دافعه إلى التكسب بالشعر بطريقة لافتة¹⁰⁷.

وتجدر الإشارة إلى أن قول ابن خلدون السابق قد وافق ما ذكره المقرئ نقلاً عن كتاب ابن سعيد "المقتطف من أزهار الطرف"، فالمقرئ يؤكد أن مخترع الموشح بجزيرة الأندلس هو مقدم بن معافى القبري، ثم أخذه عنه أبو عمر أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد¹⁰⁸.

والذي شد انتباهنا هو أن المصادر تذكر أن مخترع الموشح هو مقدم بن معافى القبري، ومرة يقول بعضها: إنه ابن معافى. على أن المهم هو أن اختراع الموشح يعود إلى رجل من قبرة وهي بلدة أندلسية "تقع بين قرطبة وغرناطة، وتبعد عن قرطبة بثلاثين ميلاً، ذات مياه سائحة من عيون شتى، وللمسجد الجامع بقبرة ثلاثة بلاطات، ولها سوق جامعة يوم الخميس، تُعرض بها ضروب الغراسات وأنواع الثمرات، وهي مخصوصة بكثرة الزيتون"¹⁰⁹.

وإذا كان مقدم قد اتصل بالأمرء وعاش في أوساط البلاطات الملكية، كان لزاماً عليه تحري الجدة في أشعاره حتى ينال الحظوة العالية عند ممدوحيه. ويذكر الدكتور إحسان عباس أن "الموشح اتخذ وسيلة للترديد على أبواب الممدوحين، أي التغني به - في طريقة الإنشاد- كما يتغنّى القوالون بهذه القصيدة أو بتلك. ومعنى ذلك أن الموشح - حسبما افترض - اتخذ في نشأته الأولى ليعخدم غايتين: إحداها الغناء، وثانيتهما التكسب"¹¹⁰.

¹⁰⁷ - ينظر: إحسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي"، ص 228.

¹⁰⁸ - ينظر: المقرئ: "أزهار الرياض"، ج2، ص 253.

¹⁰⁹ - الحميري: "صفة جزيرة الأندلس" عن "الروض المعطار"، ص 149 نقلاً عن عبد الإله ميسوم: "تأثير

الموشحات في التروبادور"، ص 80.

¹¹⁰ - إحسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي"، ص 228.

وإذا كان ذلك يقتضي ظهور فن جديد " فلم لا يقوم مقدم بن معافر الفريري أو محمد بن حمود القبري أو غيرهما باختراع طريقة لنظم الشعر تتضمن المقطوعة منها عدة ألوان من البحور والقوافي، شأن النوبة الغنائية فيستريح بذلك المغني من عناء انتقاء الأشعار وتكون المقطوعة شبيهة بالنوبة الغنائية، لكنها من شاعر واحد "111.

وهذه الظاهرة النفعية، أي التكسب، قد برزت بصفة كبيرة في عهد ملوك الطوائف، حيث تغيرت الخريطة السياسية، وظهر التنافس والتناحر بين الأمراء. وهذا كان له أثره على الوشاحين.

فقد تسابق ملوك الطوائف على "الأبهة ومظاهر الملك، ثم عداوة بعضهم لبعض جعلتهم في حاجة إلى شعراء يمدحونهم رفعا لمكانتهم في عيون أعدائهم أو إغالة لأندادهم ومنافسيهم. من أجل ذلك تقاطر الشعراء من كل طبقة وميل إلى بلاطات هؤلاء الملوك يمدحونهم تكسبا "112. وظهر شعراء ووشاحون مجدون أمثال: ابن اللبانة، وابن ارفع رأسه وغيرهما "113.

وإذا كان الموشح قد ظهر قبل هذا العصر، فإن غريزة التفكير في تطويره وإبانة القدرة الإبداعية أخذت تزاور الشعراء ذات اليمين وذات الشمال بغية الوصول إلى تجديد مثير وحافل بكل سمات هذا العصر ومتطلباته.

3- العامل الفني

يتضمن العامل الفني ثلاثة أشياء رئيسية تعتبر في رأي من يقول بأن دلسية الموشح سببا في ظهوره ودعامة لتطوره؛ وهذه الأشياء هي: الغناء المحلي، والغناء المشرقي، والتفنن العروضي.

111 - مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص 88-89.

112 - عمر فروخ: "تاريخ الأدب العربي"، ج 4، ص 398.

113 - مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص 128.

أ- الغناء المحلي

علاقة الموشح بالغناء علاقة قديمة وعضوية، تعود إلى علاقة الموسيقى بالشعر، حيث لا يستقيم شعر إلا بتوفر عنصر الموسيقى فيه .

والبيئة الأندلسية، كغيرها من بيئات المجتمع الإنساني، لا يمكن خلوها من الفنون، لا سيما الغناء الذي شاع في شبه الجزيرة الأندلسية وعرف بالغناء المحلي "فكان هذا التقليد للأغاني الشعبية. وظهر ذلك في الأعراس والحفلات، وإذا التسكين في الكلمات المنطوقة بالعامية يحيل النغمة والإيقاع عن الوزن العروضي في الشعر الفصيح ويجعلهما قريبين الشبه بالنغمة في اللغات الأوروبية غير المعربة أو القليلة الإعراب" ¹¹⁴ فكان هذا التجديد محفزا على الخوض في التغيير على مستوى القصيد. فقد أقبل العرب من مشرقهم، وفتحوا عيونهم على مجتمع جديد يتخذ من وسائل السهولة منطلقا، ومن مبدأ الحرية قاعدة لذلك. قال الدكتور محمد مندور: "فلم تلتزم الموسيقى نسقا معيناً في الموشحات يعتمد على أصول العروض الخليلية. ويرجع بعض المفسرين من رجال الأدب هذه الظاهرة التي انفردت بها الأندلس إلى عامل التأثير بالبيئة الأندلسية الطبيعية والبشرية على السواء. فكان لتأثير الشعر الأوربي وعامل التبادل بينه وبين الشعر العربي أثر في موسيقى الموشحات" ¹¹⁵.

وهذا أمر لا يمكننا إلغاؤه من قاموس التطور الفني، فإذا كانت حياة الأفراد متطورة عبر مراحل وبمساعدة العوامل الخارجية المؤثرة، فما بالك بحياة الأجناس الأدبية التي تعد من إنتاجات الأفراد وأجزاء منهم ؟.

¹¹⁴ - إحسان عباس "تاريخ لأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين"، ص: 222.

¹¹⁵ - محمد مندور: "الأدب وفنونه"، القاهرة: دار النهضة للطبع والنشر، بدون طبعة، ص 34.

ويذكر بطرس البستاني: "أن العرب تأثروا بالأدب الإسباني والفرنسي كما تأثر الفرنسيون بالأدب العربي، فأخذ العرب فكرة التحرر من نظام الأوزان في أغانيهم، وأخذ أولئك القافية والصور الخيالية الجميلة"¹¹⁶.

وقدم المستشرق "حب" منطلقا آخر وهو أساس الأغاني الشعبية الإسبانية والبروفانسية، والتي جاءت باللغة العامية، نظرا لطابعها الشعبي. فظهر ذلك في الموشحات بإدخال بعض الكلمات العامية في خرجاتها.

ويرى الدكتور ميشال عاصي أن "تطور المجتمع الأندلسي من مجموعة مفككة العناصر الشعبية، مشتتة الروابط في بادئ الأمر إلى مجتمع متجانس متوحد مع مرور الزمن، وبفعل الاختلاط والتمازج، هو السبب الأهم في انصراف الشعراء الأندلسيين العرب إلى التقليد الصارم لآثار المشاركة لافتقار صلتهم العميقة والطبيعية بالحياة الاجتماعية. ويوم شارف المجتمع الأندلسي على مراحل اندماجه الشعبي واختفاء معالم التمايز بين عناصره وفتاته، وفي أطواره الأخيرة من نموه قد عرف أنواعا خاصة من فنونه الفلكلورية، فأبدع أزجاله الشعبية وشعره القومي"¹¹⁷.

وحمل هذا الاختلاط رياحا جديدة، هبت على عقول الشعراء وساهمت في "نشأة أوزان جديدة واكتساب ميل لتذوق الجمال في الطبيعة بصورة تكاد أن تكون حديثة. وبفضل ما ظهر من الأغاني القومية والأناشيد الغرامية أخذت تتجلى فيه عواصف الحرية والمغامرة، والبطولة التي مهدت السبيل لروح الفروسية في العصور الوسطى. وما أذن القرن الحادي عشر بالظهور حتى كان شعر الموشح قد شق طريقه في أدب القوم في الأندلس"¹¹⁸. فالتوقع في عالم الفن الأدبي مرفوض، لا ينتج شعرا ولا نثرا.

¹¹⁶ - بطرس البستاني: "أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعث"، ص 80.

¹¹⁷ - ميشال عاصي: "الشعر والبيئة في الأندلس"، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1،

ص 114.

¹¹⁸ - سليم الخلو: "الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها" بيروت: دار مكتبة الحياة، ط 1، ص: 47.

ب - الغناء المشرقي

نشطت حركة الغناء بعد وصول زرياب إلى الأندلس وقد استقر بقرطبة في عهد عبد الرحمان الأوسط، الذي أكرمه وأحسن ضيافته، تقديرا لمكانته في الغناء والموسيقى¹¹⁹. قال ابن خلدون منوها بأثره: "فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف . وطما منها بإشبيلية بحر زاخر. وتناقل منها، بعد ذهاب غضاقتها، إلى بلاد العدو بإفريقية والمغرب"¹²⁰.

وأسس زرياب بالأندلس مدرسة للغناء سماها " المدينيات ". ولها طريقة خاصة يصفها المقرئ بقوله: "واستمر في الأندلس أن كل من افتتح الغناء، يبدأ بالنشيد أول شدوه بأي نقر كان ويأتي إثره بالبسيط، ويختتم بالحركات والأهزاج طبقا لمراسم زرياب"¹²¹. فأعطى بذلك للغناء مترلة رفيعة. وكان تطور النظرية الموسيقية باديا في تلك المراسم التي سنّها زرياب، فكان كل مغن حرا في اختيار الافتتاحية التي يجذبها. وهذا ما يسمى بالنوبة الموسيقية¹²².

وأدخل زرياب على العود وترا خامسا جعله فوق المثنى وتحت المثلث¹²³، واتخذ له مضربا من قوادم ريش النسر¹²⁴ بدل القطعة الخشبية المرققة لأنها تتشعث فتحدث بذلك عند الضرب عددا من النقرات في وقت واحد، مما يؤثر على مصداقية الألحان وتغلغلها في النفوس "إذ أن الغناء يرتد إلى شيء يشكل على النفس فتخرجه ألحانا عليها بذلك تتعرف عليه وتفهمه، حرصا على معرفة غامضها وشوقا إلى استفتاح منغلقتها. وكان بذلك تشبيها بما يحدث في الشعر لأن المثل العجيب والبيت

119 - المقرئ: "نفح الطيب"، م3، ص125.

120 - المقدمة، م1، ص: 766.

121 - المقرئ "نفح الطيب"، م3، ص: 129.

122 - ينظر: حكمت علي الأوسي "فصول في الأدب الأندلسي"، ص172.

123 - ينظر: احسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين"، ص223.

124 - ينظر: المقرئ: "نفح الطيب"، م3، ص126.

النادر كلما دق معناه ولطف حتى يحتاج إلى إخراجه بغوص الفكر عليه وإحالة
الذهن فيه، كانت النفس، بما يظهر لها منه أكثر التذاذا وأشد استماعاً¹²⁵.

وكانت شخصية زرياب متميزة جداً، فأحدثت تغييراً اجتماعياً بما نشرته من
ضروب اللطف في أوساط الشعب الأندلسي، ولها ذوق رفيع في المجالس وآداب
حديث راقية، انعكس ذلك كله على الشخصية الموسيقية والتي انبثقت من بين أنامله
منسابة انسياب المياه الهادئة، لكنها بالغة الأثر بفعل مرور الزمن¹²⁶.

وشاع الغناء في الأندلس، وزاد عدد المغنين والمغنيات مع كثرة النظم في الغزل
وانتشار مجالس الشراب، وخصت المدن الأندلسية بمواسم الطرب " فاشتهرت
إشبيلية بأدوات الطرب و ما فيها من الشعراء و الوشاحين و الزجالين، حتى أن
الشقندي في رسالته ذكر ما سمعه فيها من أصناف أدوات الطرب فعدد أكثر من
اثنى عشرة آلة مختلفة¹²⁷. و هذا ما أضفى على الألحان الأندلسية ثراء ملموساً
ومتميزاً.

كما يصف لنا التجيبي إحدى الليالي الأندلسية فيقول: " كنت بمدينة مالقة
من بلاد الأندلس سنة ست وأربع مائة فاعتللت بها مديدة، انقطعت فيها عن
التصرف ولزمت المنزل، وكان يمرضني حينئذ رفيقان كانا معي، يلمان من شعني،
ويرفقان بي. وكنت إذا جن الليل اشتد سهري وخفقت حولي القيان والطنابير
والمعازف من كل ناحية¹²⁸.

¹²⁵ - أدب النديم ، القاهرة :المطبعة الأميرية ،ص20، نقلا عن جابر أحمد عصفور. "الصورة الفنية في التراث

النقدي والبلاغي"، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، بدون طبعة، 1974م، ص: 334-335.

¹²⁶ - بنظر : المقرئ : "نفح الطيب"، م3، ص127.

¹²⁷ -حكمت علي الأوسي، "الأدب الأندلسي في عصر الموحدين"، ص 27

¹²⁸ - شوقي ضيف: "الفن ومذاهبه في الشعر"، ص14.

وهذا ما بعث العلماء على تأليف كتب في الموسيقى. فكان لأبي بكر بن باجة كتاب في الموسيقى. ويعد بمتزلة الفارابي بالمشرق؛ فإليه تعود الألحان الجميلة التي اعتمدها المغنون في منافساتهم¹²⁹.

"فانبثقت حضارة قوامها العلم الأصيل والأدب الراقي، ونشأت مدنية جديدة وأحوال اجتماعية رفيعة. وكانت الموسيقى تنمو وتزدهر في تقدم مستمر طوال ستة قرون حتى سجل العرب لعلومهم وموسيقاهم آيات المجد والفخر، لا تزال مضرب الأمثال"¹³⁰.

وإذا كان الغناء المشرقي قد بادر بموجة موسيقية راقية أثرت وبشكل ملحوظ في نشأة الموشح بما جلبته من مقامات متنوعة وأوزان تلحينية وفيرة، فإن للمقدرة الأندلسية فضل السبق في إدماج الغناء والشعر بصورة جديدة لافتة للانتباه. وإلا فقد كان الغناء والشعر موجودين في المشرق، لكن الموشح لم يظهر بين ظهرائه، وضرب له موعداً على إحدى ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

وعُرف الخلفاء الأندلسيون بتشجيعهم لمجالس الغناء؛ فابن عبد ربه يصف لنا مجلساً لأبي عيسى المتوكل فيقول: "اجتمع فيه المسدود وزنين ودبّيس، غنى فيه كل واحد في نوبته أبياتاً وكانت جميع الأبيات بلحن واحد وقافية واحدة"¹³¹.

واقترن الشعر بالغناء عند بعض المغنين الأندلسيين والذين اشتهروا بشعرهم الراقي وغنائهم الشجي. منهم ابن الحداد الوادي آشي الذي ألف كتاباً في العروض، جمع فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية بطريقة ذكية ومذهلة.¹³²

129 - ينظر: المقرئ "نفح الطيب"، م3، ص:3

130 - سليم الحلو: "الموشحات الأندلسية، نشأتها وتطورها"، ص48.

131 - ابن عبد ربه: "العقد الفريد"، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة: مطبعة الاستقامة، ط2، ج7،

ص:34-35.

132 - ينظر: المقرئ: "نفح الطيب"، م3، ص502.

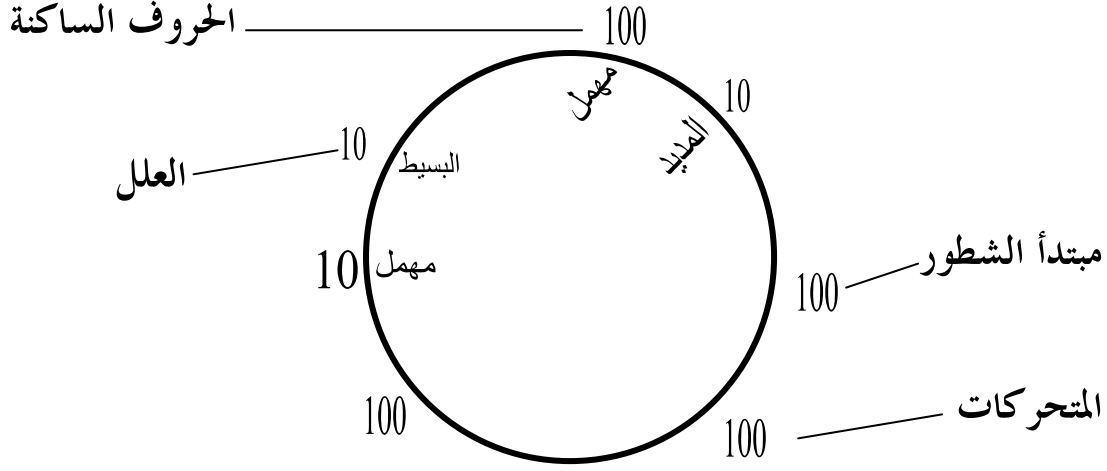
لقد كانت أرض الأندلس كما يبدو واضحة لدينا، خصيبة، حيث زُرعت فيها بذرة الغناء المشرقي فاهتزت وربت لتسفر عن ظهور ثمرة يانعة، أذهلت العقول بما فيها من تفنن وسمو في الذوق الفني. فالموشح يعد نقطة وصل بين التيارات المشرقية والغربية بيد أندلسية ساحرة حولته من فن شفوي يزدرية النقاد إلى فن مدون بديع الصنع.

ج-التفنن العروضي

وسع الوشاحون الأندلسيون المجال العروضي، فاخترقوا صمت ما أهمل من الأوزان، وركبوا البحور التي هُجرت. يقول ابن بسام: "وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفئنا واخترع طريققتها - فيما بلغني - محمد بن حمود القبري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة"¹³³. وتبين الدوائر العروضية التي رسمها ابن عبد ربه هذه البحور المهملة والتي جاءت في نسقين: نسق مختلف، ونسق مؤتلف.

¹³³ - ابن بسام: "الذخيرة"، ق 1، م 1، ص: 470.

ودائرة المختلف يمكن رسمها على النحو التالي¹³⁴:



وتتخذ الموشحات ذات النسق المختلف خطا غير واضح القاعدة حيث يختار الوشاح الأشطر والقوافي ويرتبها كما يروقه ويعجبه. فقد تكون الموشحة على محور مجزوءة وأقدار متفاوتة وقد تخرج عن أوزان العرب¹³⁵. يقول ابن سناء الملك: "والقسم الثاني من الموشحات هو مالا مدخل لشيء منه في أوزان العرب". ثم يقول: "وهذا القسم منها هو الكثير، والجم الغفير، والعدد الذي لا ينحصر، والشارد الذي لا ينضب. وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دفترها لحسابها، وميزاناً لأوتادها وأسبابها، فعز ذلك وأعوز، لخروجها عن الحصر، وانفلاتها من الكف، ومالها عروض إلا التلحين"¹³⁶.

وقد ساعدت هذه التغيرات، على ليونة ميدان التلحين وخصوبته، فأحدث بذلك الوشاحون تناسبا في المد والقصر والزيادة والخطف بين الحركات¹³⁷.

ويضيف ابن سناء الملك موضحاً الحداثة العروضية للموشح فيقول: "يقول ابن

بقي :

¹³⁴ - ابن عبد ربه: "العقد العقد الفريد"، ج4، ص: 43.

¹³⁵ - ينظر: عمر فروخ: "تاريخ الأدب العربي"، ج4، ص431.

¹³⁶ - ابن سناء الملك: "دار الطراز"، ص47.

¹³⁷ - ينظر: إحسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي"، ص225.

من طالب ثار قتلي ظبيات الحدوج فتانات الحجيج

فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول المغني "لا لا" بين الجزئين الجيمين من هذا القول "138". وهذا ما جعل الملحنين ينوعون في تلاحينهم، فقد عد "مارتن هارتمن" الألحان الأندلسية بـ "مائة وستة وأربعين مزيجا سمي المزيج منها بحرا"139. واستعمال الأعاريز المهمة دليل على "الإبداع والمقدرة على التجديد؛ فتفاعيل هذه الأعاريز كانت معروفة، لكنها لم تدرج على الألسنة. ووافق هذا الاتجاه قدرة التلاحين على أن تخفف من نبوتها على الاستماع، فاعتمدها بعض الناشئين والناظمين إظهارا للقدرة وطلباً للتنويع، وتشجيعاً على الجدة في النغمات"140. أما نسق المؤتلف، فيكون في أغلب الأحيان على الأبحر المألوفة. وهناك ثلاثة أنواع تسير على بحر الرمل عادة. ويكون نظم مطلع ثم تليه الأبيات141. وهذه الأنواع الثلاثة هي:

1- الموشحة " المفردة " أي البسيطة: مثل موشحة ابن زهر التي يقول منها:

المطلع:

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

البيت الأول:

ونديم همت في غرته

وشربت الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكا وسقاني أربعا في أربع.

138 - ابن سناء الملك: "دار الطراز"، ص50.

139 - عمر فروخ: "تاريخ الأدب العربي"، ج4، ص:427.

140 - سليم الحلو: "الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها"، ص46.

141 - ينظر: عمر فروخ: "تاريخ الأدب العربي"، ج4، ص:429-430.

2- الموشحة "المشاة" أو المزدوجة، وفيها بينى صدر البيت على روي وعجزه على روي آخر، يقول ابن سهل في موشحة له¹⁴²:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى
قلب صب حله عن مكس
فهو في حر وخفق مثلما
لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا أشرق يوم النوى
غررا تسلك بي نهج الغرر

3- الموشحة "المركبة" أي المتعددة ويكون البيت فيها ثلاثة أضعاف البيت في الموشحة المفردة كقول ابن زهر:¹⁴³

ما للموله من سكره لا يفيق ياله سكران
من غير خمر ما للكئيب المشوق يندب الأوطان
فعلاقة الكلمة باللحن وسعت المجال العروضي، وبينت "أن الأوزان العربية تسعى إلى ائتلاف نغمات الصيغ الصرفية و التركيب النحوي مع خط لحنى ينتظم مع التفعيلات باحتمال الأضرب و الأعاريض والزخافات الممثلة خيارات واسعة الأرجاء والألوان. ويمكن التمثيل بأوتار الآلة الموسيقية التي تعرف خامسة مميزة وأطوالا محددة ثم تضبط شدتها بحسب موقعها من السلم الموسيقي. وإذا ما حدث تفريط أو خلل في أي ركن بدت النغمة هشة أو مؤذية للسمع"¹⁴⁴.

¹⁴² - ينظر : المرجع السابق، ص430.

¹⁴³ - ينظر: المرجع نفسه ، ص 432.

¹⁴⁴ - فؤاد أحمد إبراهيم: "وحدة الفنون وتراسلها"، مجلة الجزيرة ،عدد10465، ط1، الموقع الالكتروني :

هكذا كانت نشأة الموشح ضمن إطار أندلسي وفر عدة عوامل مساعدة على ولادة مثل هذا الفن.

تقييم:

انطوت النظرية الأجنبية التي دعت إلى الأصل الإسباني للموشح على ثغرات عدة، تبين ضعف مسعاها ذاك. ومن بين هذه الثغرات مايلي:

اتخذ أصحاب النظرية الأجنبية الخرجات الأعجمية دليلا على تأكيد الأصل الأجنبي، لكن ثمة دليل آخر يثبت عكس ذلك، وهو قول ابن بسام التالي: "... واخترع طريققتها - فيما بلغني - محمد بن محمود القبري الضرير. وكان يضعها على أشطار الأشعار... يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز"¹⁴⁵. فإذا أخذ الوشاح اللفظ فقط، فأين الأصل الأجنبي في ذلك؟ فاللفظ غير الشطر، إذ هو جزء من كل، ولا يصح بناء نظرية على أجزاء الأشياء.

وقد رد الدكتور هلال ناجي آراء أصحاب النظرية الأعجمية في مقدمة كتاب "جيش التوشيح" بالأدلة التالية:¹⁴⁶

- "ليس لدينا نماذج على ذلك الشعر الغنائي الرومانسي الذي سبق الموشحات.
- إن هذه الخرجات الأعجمية موزونة وزنا عربيا.
- يؤخذ مما ذكره ابن بسام وابن سناء الملك أن هذه الخرجات (العامية والأعجمية) من نظم أصحاب الموشحات أنفسهم.
- إن نفرا من الشعراء الذين كانوا يعرفون لغتين (في الأندلس وفي المشرق أيضا)، كانوا أحيانا يتظرفون بإدخال ألفاظ وجمل في أشعارهم من غير اللغة العربية"

¹⁴⁵ - ابن بسام: "الذخيرة" ق1، م1، ص468-470.

¹⁴⁶ - لسان الدين بن الخطيب: "جيش التوشيح"، تحقيق هلال ناجي، تونس، مطبعة المنار، بدون طبعة

1967، المقدمة، ص: ض.

ويعود هذا الاستعمال الأجنبي في خرجات الموشح إلى مناسبة مقام الغزل بالجواري الأجنبية، حيث نقلت هذه الخرجات مضمون الكلام وبلغته الأصلية، إذ تخاطب المرأة الأجنبية بلغتها، كما نقلت واقعية لغة المرأة الإسبانية التي تتغزل بمحبوبها دون حرج¹⁴⁷.

ويعود في نظرنا هذا الاختيار الأجنبي لدى الوشاحين إلى طواعية الأدب العربي، وفي هذا الصدد يقول الدكتور طه حسين: "يتكون أدبنا العربي من عنصرين هامين، أسماهما أوكست كونت " الثبات والاستقرار "و"التحول أو الانتقال ". والذي يمتاز به أدبنا العربي من الآداب الحية الأخرى، هو أن التوازن لم ينقطع بين هذين العنصرين، ولم ينشأ عن انقطاعه جمود الأدب وموته، بتغلب عنصر الثبات والاستقرار، أو فناء الأدب وتفرقه بتغلب عنصر التحول والتطور... ولم يكن الأدب بطيئاً في الاستجابة لهذا التجديد¹⁴⁸"

كما أن التمازج الحضاري بين العرب واسبان، كفّل ذلك الازدواج اللغوي لدى الوشاحين، فكان طبيعياً أن يجيد العرب لغة قوم البلاد التي فتحوها، "ويشاركوهم في التحدث بها، وأن يتذوقوا هذا الأسلوب التعبيري في ذلك النمط من الغناء المبتكر على شكل موشحة¹⁴⁹".

فلم تكن الخرجات الأعجمية، سوى وسيلة لإرضاء الذوق العام الذي لم يكن يستسيغ الشعر الفصيح وتلحينه ليصبح أغنية جاهزة للاستماع. ولذلك لبت الخرجات الأعجمية حاجة المغنيين ووافقتها تلك الأوزان والقوافي، التي اتخذت إطاراً غير تقليدي¹⁵⁰.

¹⁴⁷ - ينظر : حكمت علي الأوسي : " فصول في الأدب الأندلسي " ، ص174-175.

¹⁴⁸ - طه حسين : "ألوان " ، القاهرة : دار المعارف ، ط3 ، ص18.

¹⁴⁹ - حكمت علي الأوسي : " فصول في الأدب الأندلسي " ، ص175.

¹⁵⁰ - ينظر : مصطفى الشكعة : "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه" ، ص372-373.

وإذا كان الدكتور "مصطفى عوض الكريم" مال إلى الأصل الأجنبي للموشح في قوله الذي يثبت فيه تقليد الوشاحين الأوائل لشعر غنائي أعجمي، كان موجودا من قبل، فهذا الإثبات لا يقره الميل وحده، و إلا كان من حقنا الميل إلى عكس هذا القول.

كما أن عامل التأثير بين الحضارات واقع لا يمكن إنكاره؛ "فكما تأثر الاسبانيون والفرنسيون بالأدب العربي، أخذ العرب فكرة التحرر من نظام الأوزان في أغانيهم، وأخذ أولئك القافية والصور الخيالية الجميلة"¹⁵¹.

أما فيما يخص النظرية المشرقية، فالملاحظ هو النقاش الحاد الذي دار بين المنظرين حول صاحب الموشح المشهور الذي مطلعته:

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

فقد أكد بعضهم أن صاحبه هو ابن المعتز، الشاعر العباسي المشرقي. و الرد الناصع على هذا، هو تأكيدات المصادر الأدبية التي أثبتت الأصل الأندلسي للموشح و كذا نسبة الموشح السابق الذكر إلى ابن زهر الأندلسي.¹⁵²

و إذا كان بعض الباحثين قد ارجع الموشح إلى فن التسميط الذي عرف في المشرق، فبناء الموشح الشكلي و العروضي يثبت عكس ذلك، كما أن الدكتور مصطفى الشكعة الذي أتى بتلك الازاحات و الحذف برهن على ضعف نظريته بدل مصداقيتها، إذ كان بمثابة لاعب شطرنج، يبقى على قطعة و يحذف أخرى حسب مقتضيات قانون اللعبة.

و مهما قيل في نشأة الموشح، وأسباب ذلك، فلا يسعنا في آخر المطاف إلا القول بأن الموشح فن كسائر الفنون لا يعترف بالطفرات، أو بالوثبات التلقائية،

¹⁵¹ - بطرس البستاني: "أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث"، ج3، ص171-172.

152 - ينظر: نفح الطيب، دار الطراز، المقدمة...

دوغما تفكير و تدرج في الظهور و التطور، فلا يمكن إنكار وظيفة سنة النمو والنضج في الأجناس الأدبية، بفعل الإنسان والزمن البيئة.

فعنصر المفاجأة في تطور الأعصر التاريخية التي تولد أثناءها الخصائص الأدبية منعدم، وهذا يؤكد أن من كل عنصر تبقى عناصر راسبة في المجتمع، وتظهر إلى جانب الأحوال والخصائص المستحدثة¹⁵³.

فالأدب كما يقول الدكتور شوقي ضيف، "يشبه سفينة نوح حيث تجمعت فيها كائنات ومخلوقات لا عدد لها، لها صفات وخصائص متعددة، وكل ما يثبت في القاع يمثل حياتها، وما يطفو على السطح هو آمالها وكذا أحزانها"¹⁵⁴.

كذلك نشأ الموشح الذي تنازعت آراء كثيرة، حيث أصرت كل نظرية على إثبات أصل معين له، وحشدت لذلك براهين منطقية. ولكن حقيقة أصل الموشح تعود إلى تلاحق الحضارات؛ فقد أخذ هذا الفن من الشعراء الوافدين وأضاف جديد المحليين، فكان مثله مثل نخلة عبد الرحمان الداخل، أصلها مشرقى ومنبتها أندلسي. وكأنما القدر ضرب موعدا على أرض الأندلس حيث سيظهر فن جديد يدعى الموشح.

¹⁵³ - ينظر: عمر فروخ "تاريخ الأدب العربي"، ج4، ص77-78.

¹⁵⁴ - شوقي ضيف: "في النقد الأدبي"، ص198.

الفصل الثاني

طبيعة الموشح

- تعريف الموشح
- أجزاء الموشح
- شكل الموشح
- الطبيعة العروضية
- موضوعات الموشح
- طبيعة اللغة

تعريف الموشح:

الموشح فن أندلسي المنشأ، له خصائص ومميزات كثيرة، خالف بها القصيدة العربية القديمة، إذ له منهج خاص يتبعه الوشاح فيما يخص الإيقاع العروضي و البناء الشكلي. و فيما يلي تعريفات لغوية لكلمة "موشح"، ثم تعريفات أدبية لهذا الفن.

1- التعريف اللغوي:

- لسان العرب:

جاء في لسان العرب:

"الموشح، والوشحاء، والموشحة، وديك موشح: إذا كان له خطتان كالوشاح. والموشحة: من الظباء والشاء و الطير: التي لها طرتان من جانبيها"¹.

- أساس البلاغة:

عرّف الزمخشري الموشح بقوله:

"الموشح أو الموشحة: من الإشاح والوشاح، وهو حلي للنساء، أو هو كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر، لتزيين به المرأة، أو هو سير منسوج من الجلد يُرصّع بالجواهر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحيها. والموشح اسم مفعول يدل على أن الناظم قد وضع منظومته على شكل الوشاح"².

- خلاصة الأثر:

عرّفه المحبّي بقوله: "سُمّي الموشح كذلك، "لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح"³.

¹ - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب"، بيروت: دار صادر، ط6، 1976، مادة "وشح".

² - جار الله القاسم محمود بن عمر الزمخشري: "أساس البلاغة"، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، د.ط، 1965، مادة "وشح".

³ - المحي: "خلاصة الأثر، في أعيان القرن الحادي عشر"، بيروت: دار صادر، (د.ط.)، ج1، ص 108.

2- التعريف الاصطلاحي:

حاول ثلة من الدارسين تعريف الموشح، بمفاهيم متعددة أهمها ما يلي:

- ابن سناء الملك:

عرّف ابن سناء الملك الموشح بأنه: "كلام منظوم على وزن مخصوص"⁴. وزاد الصفدي على ذلك التعريف فقال: "الموشح كلام منظوم، على قدر مخصوص، بقواف مختلفة"⁵.

- محمد بن أبي شنب:

عرّفه الدكتور محمد بن أبي شنب بقوله: "الموشح قصيدة نُظمت من أجل الغناء"⁶.

- مصطفى عوض الكريم:

بين الدكتور مصطفى عوض الكريم ماهية الموشح بقوله: "الموشح لون من ألوان النظم، ظهر أول ما ظهر بالأندلس في عهد الدولة المروانية في القرن التاسع الميلادي، و يختلف عن غيره من ألوان النظم بالتزامه قواعد معينة من حيث التقفية، و خروجه أحيانا على الأعاريض الخليلية، و بخلوه أحيانا من الوزن الشعري، و باستعماله اللغة الدارجة و العجمية في بعض أجزائه، و باتصاله الوثيق بالغناء"⁷.

4 - "دار الطراز"، ص: 25.

5 - "توشيع التوشيح"، ص: 21.

6 - "دار المعارف الإسلامية، مادة "موشح"، نقلا عن: مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص 17.

7 - "فن التوشيح"، ص 18.

- يوسف عيد:

يرى الدكتور يوسف عيد أن الزخرفة الفنية التي ينطوي عليها فن الارابسك ما هي إلا أشكال تتناسب وأقسام الموشح المؤلف من مطلع ودور وقفل وبيت وخرجة⁸.

والملاحظ أن بعض التعريفات أشار إلى صلة الموشح بالغناء، و ظروف الزينة والجمال داخل المجتمع الأندلسي، وهذا دليل على خصوصية فن التوشيح، الذي يعد مرحلة جديدة من مراحل التطور الشعري العربي.

وقد تميز الموشح عن باقي الشعر، من مقصّده ومسمّطه ورجزه، بطبيعة أهله لأن يكون مدار نقاشات نظيرية كثيرة قديما و حديثا.

فله أجزاء، و منهج و تطور ملحوظ شهدته عبر عهود متتالية، و صبغة فنية خاصة، و بناء هندسي متميز؛ و حتى اسم "الشاعر" تغير وأصبح لفظ "وشاح" بديلا عنه، و كان ذلك الاسم (شاعر) لم يعد يستوفي شروط هذا الفن الجديد. و قد اعتمدنا على أقوال ابن سناء الملك و غيره من العلماء الذين لأسهموا في بيان هذا الفن، ميرزين مفهومه و خصائصه المتعددة.

أجزاء الموشح:

يجد المتتبع للكتابات التي وصفت أجزاء الموشح، أن أصحابها يختلفون في المصطلحات التي يطلقونها على تلك الأجزاء. و قد فضلنا ما كثر الاتفاق عليه من تلك المصطلحات.

1- المطلع:

طلق هذا الاسم على المجموعة الأولى من الموشح. و غالبا ما يكون عدد الأجزاء فيها اثنين، و مثال ذلك قول ابن زهر:

أ- أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك و إن لم تسمع ب

⁸ - ينظر: "التوشيح في الموشحات الأندلسية"، ص: 11.

و هذا المثال للشكل البسيط من الموشح الذي انقسم فيه المطلع إلى جزأين (أ،ب). وهو موشح تام حيث بُدئ فيه بالمطلع.⁹

وهناك موشح تام آخر للأعمى التطيلي، المطلع فيه يتكون من عدة أجزاء، يذكره ابن سناء الملك على النحو الآتي:¹⁰

صاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان و حواه صدري
ويرى العلماء بأصول هذا الفن – معتمدين على ما وقفوا عليه من إبداع
الوشاحين الأندلسيين – أن المطلع غير أساسي في الموشح، و يمكن الاستغناء عنه.
ويسمى الموشح حينذاك "بالموشح الأقرع" كموشح التطيلي¹¹:

سَطوة الحبيب أحلى من جنى النحل
وعلى الكئيب أن يخضع للذل
أنا في حروب مع الحدق النجل

و يذكر الدكتور مصطفى عوض الكريم أن القافيتين يمكن أن تتفقا في كل
جزأين من المطلع كما يمكن أن تختلفا¹².

و يستقل المطلع وعليه تبنى الموشحة. ويُسمّى كل جزء من المطلع "غصنا"¹³.

2- الدور:

وهو مجموع الأجزاء التي تلي المطلع، و يبلغ عددها ثلاثة إلى خمسة أجزاء.
ولا يُشترط وصولها إلى عدد معين¹⁴. و يستهل الدور الأول الموشح الأقرع، أما في

⁹ - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص: 21 . "الموشحات و الأرجال"، ص: 10.

¹⁰ - ينظر: دار الطراز ص: 32.

¹¹ - ينظر: المصدر نفسه.

¹² - ينظر: "فن التوشيح"، ص: 21.

¹³ - المرجع نفسه.

¹⁴ - ينظر: ابن سناء الملك، المصدر السابق، ص 33-34.

الموشح التام، كما هو الحال في موشح ابن زهر السابق، فالدور الأول هو:¹⁵

ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

هذا الدور مكوّن من ثلاثة أجزاء. ويرى الدكتور مصطفى عوض الكريم أن هذا التعيين العددي كانت له علاقة بالحاجة الغنائية. لكن، بعد الانفصال الذي تم بين النظم و الموسيقى، جنح الوشاحون إلى النفس الطويل كما هو الشأن في موشحات لسان الدين بن الخطيب و ابن زمرك¹⁶.

3- السمط:

كل جزء من الدور يسمى "سمطاً" ويكون مفرداً، أي مكوناً من فقرة واحدة، كما يمكن أن يركب من فقرتين فأكثر¹⁷، كما في قول الأعمى التطيلي من إحدى موشحاته¹⁸.

لله ما أقرب على محبيه وأبعدا

حلو اللمى أشنب آسى الضنا فيه وأسعدا

أحب به أحب ويا تجنيه طال المدا

ويشترط الخبراء بالموشحات أن تتماثل جميع الأدوار في الترتيب وتتساوى في العدد¹⁹.

15 - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "الموشحات و الأزجال"، ص: 12.

16 - ينظر: المرجع نفسه.

17 - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص: 29-30.

18 - ابن سناء الملك: المصدر السابق، ص: 109.

19 - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص: 29-30.

4- القفل:

وهو مجموع الأجزاء التي تعقب الدور الأول. ولا يُشترط عدد معين من الأقفال، وإن كان عددها في أغلب الموشحات، خمسة عدا المطلع، أي القفل الأول. ويجب أن تكون الأقفال متفقة في الوزن و القوافي و عدد الأجزاء²⁰.

ويسمّي بعضهم القفل "مركزاً"، وهو يشبه المطلع في الموشح التام. ويتردد في الغالب، في الموشح التام ست مرات إذا عدنا المطلع، وخمس مرات في الأقرع²¹.

أما الأجزاء التي يتركب منها فأقلها اثنان. وقد يصل عددها إلى عشرة، يقول ابن سناء الملك: "و أقل ما يتركب القفل من جزأين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء، و قد يكون من النادر ما قفله تسعة أجزاء و عشرة"²².

وقد مثّل لها ابن سناء الملك، مشيراً إلى أن ما يُدرك بالقول غير ما يُجسّد خطياً، و رتبها على النحو الآتي:²³

أ- القفل المركب من جزئين:

كقول ابن زهر من إحدى موشحاته:

شمس قارنت بدرا راح و نديم

ب- القفل المركب من ثلاثة أجزاء:

كقول ابن زهر:

حلّت يد الأمطار أزرة النوار فيأخذني

ج- القفل المركب من أربعة أجزاء:

كقول الأعمى التطيلي من إحدى موشحاته:

أدر لنا أكواب ينسى بها الوجد و استحضر الجلاس كما اقتضى الود

20 - ينظر: ابن سناء الملك: المصدر السابق، ص: 33.

21 - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "الموشحات و الأرجال"، ص: 10.

22 - المصدر السابق، ص: 33.

23 - ينظر: المصدر نفسه، ص: 34.

د- القفل المركب من خمسة أجزاء²⁴:

كقول ابن زهر:

يا من أجود و ييخل على شحي و افتقاري
أهواك و عندي زياده منها شوقي و ادكاري

هـ- القفل المركب من ستة أجزاء²⁵:

كقول الوشاح:

ميتات الدمن احيين كربى و هل يتمكن
عزاء لقلبي مت يا عزاه شــــــــــــــــاه

و- القفل المركب من سبعة أجزاء²⁶:

وجد ابن سناء الملك مثالا له في موشح ابن غرلة "العروس" و لكنه لم يورده لأن ذلك الموشح مزمن، يقول ابن سناء الملك معللا ترك التمثيل به: "الموشح المعروف بالعروس و هو موشح ملحون، و اللحن لا يجوز استعماله في شيء من الفاظ الموشح إلا في الخرجة خاصة، و لهذا لم نورد مثاله"²⁷.

ز- القفل المركب من ثمانية أجزاء

كقول ابن اللبانة:

على عيون العين رعى الدراري من شغف بالحب
و استعذب العذاب و التذ حالیه: من أسف و كرب

²⁴ -ابن سناء الملك: المصدر السابق، ص: 35.

²⁵ -المصدر نفسه.

²⁶ -المصدر نفسه، ص: 35-36.

²⁷ -ينظر المصدر نفسه.

على أن ابن سناء الملك بين أن هناك قلة في الموشحات التي يختلف عدد
أجزاء أقفالها كما في موشح عبادة القزاز الذي يتكون قفله الأول من جزأين وبقية
أقفاله من ثلاثة، و أشار إلى أن مثل هذه الموشحات شاذة لا يعول عليها²⁸.
وموشح عبادة هو²⁹:

بأبي علق بالنفس علق
هويت هلالا في الحسن فريدا
أعار الغزالا الحاظا وجيدا
وتاه جمالا لم يغ مزيدا
بدر يتلالا

في حسن اعتدال زانه رشق والقدر شيق

5- البيت:

يتكون البيت في الموشح من الدور و القفل الذي يليه، وهو اختلاف واضح بين
القصيدة، التي تتكون ابياتها من صدر و عجز، و الموشحة. و يطلق ابن سناء الملك
مصطلح "بيت" على ما يطلق عليه غيره مصطلح "دور"، فيقول: "إنها أجزاء مفردة
أو مركبة يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقا مع بقية أبيات الموشح في وزنها و
عدد أجزائها، لا في قوافيها؛ بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي
البيت الآخر"³⁰.

و قد قدم ابن سناء الملك أمثلة لأبيات الموشح على النحو الآتي:

²⁸ - ينظر: المصدر السابق، ص: 35-36.

²⁹ - المصدر نفسه، ص: 70-71.

³⁰ - المصدر نفسه، ص: 33.

أ- الأبيات المفردة الأجزاء: ³¹

1- ما هو منها على ثلاثة أجزاء:

كقول ابن بقي:

أرى لك مهند أحاط به الإثم فجرد ما جرد
فيا ساحر الجفن حسامك قطاع

2- ما هو منها على أربعة أجزاء: ³²

كقول ابن اللبانة:

قد باح دمعي بما أكتمه وحن قلبي لمن يظلمه
رشا تمرن في لا فمه كم بالمني أبدا ألثمه
يفتر عن لؤلؤ متسق من للاقاح بنسميه العبق

ب- الأبيات التي أجزاؤها مركبة ³³ :

1- ما تركب بيته من فقرتين و ثلاثة أجزاء:

كقول ابن اللبانة:

أقم عذري فقد آن أعكف
على خمير يطوف بها أطف
كما نذري هضيم الحشى مخطف
إذا ما ماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

³¹ -المصدر السابق، ص: 36.

³² -المصدر نفسه، ص: 37.

³³ -المصدر نفسه.

2- ما تركب من فقرتين و ثلاثة أجزاء و نصف³⁴:

كقول ابن اللبانة:

من أودع الأجفان صوارم الهند
و أنبت الريحان في صفحة الخد
قضى على الهيمان بالدمع و السهد
أنى و للكتمان

للهايم المغرم بدمع نم إذ يسجم بما يكتم من السر
في عاطل حال غزير ساط علي بالدعج
3- ما تركب من فقرتين و أربعة أجزاء³⁵:

كقول الأعمى التطيلي:

ما حوى محاسن الدهر إلا غزال
معرق الخدين من فهر عم و خال
نسبة للنايل الغمر و للنزال
فأنا أهواه للفخر و للجمال
وجهه وجه طليق للضيوف مشرق و يد تسطو على الأسد فتفرق
4- ما تركب من فقرتين و خمسة أجزاء³⁶:

كقول الوشاح عبادة القزاز:

هن الظباء الشمس قيصهن الضيغم
ما ان لها من كنس إلا القلوب الهيم
القرب منها عرس و البعد عنها مأتم

³⁴ -ابن سناء الملك: "دار الطراز"، ص: 37.

³⁵ -المصدر نفسه ، ص: 38.

³⁶ -المصدر نفسه.

تلك الشفاه اللعس يحيا بمن المغرم
لها لحاظ نعس ترنو إلى من يسقم
بأعين الغزلان و تبتسم عن جوهر الأسماط
قضى لها الغيران أن تكتم في مضمـر الأنياط
5- ما تركب بيته من جزئين مركبين من فقرتين³⁷:

كقول أحدهم:

باكر إلى الخمر و استنشق الزهرا
فالعمر في خسر ما لم يكن سكر
فقل ما أسلو عن مرشف الأكواس و ساحر الطرف مساعد الجلاس
فاسقني بنت الزراجين

و يشير ابن سناء الملك إلى أن هذا المثال قليل النظم عند الوشاحين³⁸.

6- ما تركب من ثلاث فقر و ثلاثة أجزاء³⁹:

كقول ابن بقي:

من لي به يرنو بمقلتي ساحر إلى العباد
ينأى به الحسن فينشني نافر صعب القياد
وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثماد
فجيده أعيد و الخد بالخال منمق تكتمه الحجب فلي إلى الكلة تشوق

³⁷ -ابن سناء الملك: المصدر السابق، ص: 33 .

³⁸ -المصدر نفسه، ص: 39.

³⁹ -المصدر نفسه.

7- ما تركب من أربع فقر و ثلاثة أجزاء⁴⁰:

كقول عبادة القزاز:

بأبي ظبي حى تكنفه أسد غيل
مذهبي رشف لمى قرقفه سلسيل
يستبي قلبي بما يعطفه إذيميل
ذو اعتدال يُعزى إلى ذي نعمة ثابت
في ظلال تحت حلى قطر الندى بايت

6- الغصن:

هو جزء من أجزاء الأقفال (و منها المطلع و الخرجة) و تتساوى الأغصان في جميع الأقفال في العدد و تتماثل في الترتيب⁴¹. وأقل عدد الأغصان في كل قفل اثنان، و قد يصل إلى عشرة، كما يقول ابن سناء الملك⁴².

ويذكر الدكتور مصطفى عوض الكريم أن الوشاح قلما يخرج على شرط الأغصان المحدد سابقا. و يظهر ذلك الخروج في قول عبادة القزاز:⁴³

بأبي علق بالنفس علق

فهذا المطلع مكون من غصنين، أما الأقفال الأخرى فمكونة من ثلاثة أغصان، وذلك بإضافة غصن لامي قبل الغصنين القافيين⁴⁴.

و قد تعدد الأغصان في أقفال الموشح، و مثاله قول ابن الخطيب⁴⁵:

جارك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

⁴⁰ -المصدر السابق، ص: 40.

⁴¹ - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "الموشحات و الأزجال"، ص: 10.

⁴² -ينظر: المصدر السابق، ص: 33.

⁴³ -ينظر: مصطفى عوض الكريم: المرجع السابق، ص: 10-11.

⁴⁴ -ينظر: المرجع نفسه، ص: 10-11.

⁴⁵ -ينظر: المرجع نفسه.

لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

فهذه الأقفال تتكون من أربعة أغصان⁴⁶.

ويوضح الدكتور مصطفى عوض الكريم حقيقة تحدد بعض طبيعة الموشح وهي: أنه كلما ازداد عدد الأغصان في الموشح أبعد ذلك عن أن يكون مجرد مسمط، حيث لا تتكرر إلا قافية واحدة. على أن المبالغة في تعدد هذه الأغصان نوع من التكلف. و قد انصرف إليه ثلة من وشاحي المشرق، فقد جاء ابن نباتة بعشرة أغصان في أحد موشحاته،⁴⁷ كما نظم ابن سناء الملك موشحا تتكون أقفاله من عشرة أغصان و موشحا آخر لأقفاله أحد عشر غصنا⁴⁸.

7- الخرجة:

هي آخر قفل في الموشحة و هي جزء أساسي منها، يقول ابن سناء الملك مشيدا بمكانتها في الموشحة: "و الخرجة هي إبراز الموشح و ملحمة و سكره، و مسكه وعنبره، و هي العاقبة و ينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة"⁴⁹.

- أنواعها:

حدد ابن سناء الملك ثلاثة أنواع من الخرجة، تُستنتج من جملة شروط فصلها

لما تحدث عن الخرجة و هي:

1-الخرجة العامية:

و مثالها قول الأعمى التطيلي:⁵⁰

⁴⁶ -ينظر: المرجع السابق، ص: 11.

⁴⁷ -ينظر: المرجع نفسه.

⁴⁸ -ينظر ابن سناء الملك: "دار الطراز"، ص: 97-98.

⁴⁹ -ينظر: المصدر نفسه، ص: 43.

⁵⁰ -المصدر نفسه، ص: 110.

يا رب ما أصبرني نرى حبيب قلبي ونعشقه
لو كان يكون سنه فيمن لقي خلو يعنقه

2- الخرجة المعربة:

كقول ابن بقي:⁵¹

ليل طويل ولا معين يا قلب بعض الناس أما تلين

3- الخرجة الأعجمية:

و مثالها خرجة موشح الأعمى التطيلي التي يقول فيها:⁵²

Albo dia, esta dia	ألب ديا اشت ديا
dia del, ansara haqqa	ديا ذي العنصره حقا
Vestire meu'l-mudabbaj	بيشتري مو المدبج
Wa nashuqq'l-rumha shaqqa	و نشق الرمح شقا

و ترجمتها:

يا فجر اليوم، هذا اليوم الجميل

يوم العنصره حقا

سألبس مدبجي

و نشق الرمح شقا.

شكل الموشح:

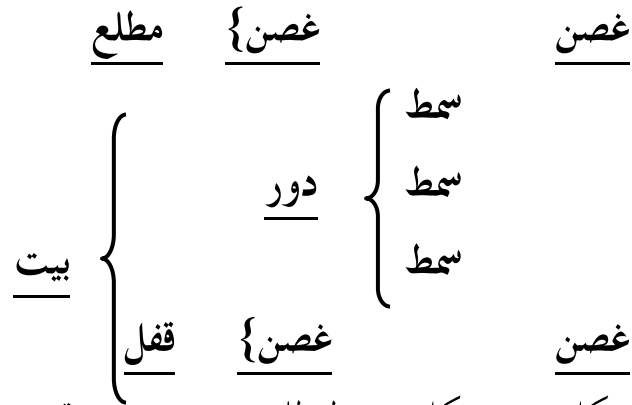
يتخذ الموشح شكلا خاصا، يختلف عن الشكل الذي بنيت عليه القصيدة

العربية العمودية، و المتمثل في تقابل الأبيات بشكل متواز.

و يظهر ذلك على النحو التالي:⁵³

⁵¹ -المصدر السابق، ص: 92.

⁵² -مجلة الأندلس، العدد: 19، سنة 1954، نقلا عن: إحسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين"، ص: 241-242.



هذا الشكل هو شكل بسيط للموشح، حيث تمضي الموشحة في خطوط متقاربة، تتماثل مع جسم الخطين من اللؤلؤ الذي تتزين به المرأة و تضعه على صدرها كطرفي وشاح. و يتبين ذلك في قول ابن اللبانة⁵⁴:

شاهدي في حبه حرقى أدمع كالجمر تنذر

تعجز الأوصاف عن قمر

خده يدمى من النظر

بشر يسمو على البشر

قد براه الله من علق ما عسى في حسنه أصف

ويرى الدكتور فوزي سعد عيسى أن الوشاحين لا يلتزمون التعادل الكمي في رسم هندسة توشيحاتهم. وقد خضعت بذلك أشكال الموشحات إلى التقطيع العروضي الذي يختاره الوشاح، فتتراوح ما بين المد الطويل والمد القصير⁵⁵. ويمكن أن نستكشف ذلك في الأمثلة التالية:

يقول ابن الصباغ من موشح له⁵⁶:

⁵³ -مصطفى عوض الكريم: "الموشحات و الأزجال"، ص: 10.

⁵⁴ -يوسف عيد: "التوشيح في الموشحات الأندلسية"، ص: 106.

⁵⁵ -ينظر: "الموشحات و الأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 108.

⁵⁶ -السيد مصطفى غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 397.

قم وناج الله في داجي الغلس تنتشي الأرواح
والتمس للعفو فيه ملتمس وانتبه قد فاح
عرف أزهار الرضا ثم اقتبس نور رشـد لاح

وهذا المثال يظهر تلك الأجزاء القصيرة و الطويلة المشار إليها سابقا.
وقد يختار الوشاح أحد الأجزاء القصيرة منها أو الطويلة و يبنى عليها موشحته،
كما في قول ابن زهر⁵⁷.

سدلن ظلام الشعور
على أوجه كالبدور
سفرن فلاح الصباح

كما يجوز للوشاح أن ينوع في انتقاله، فيمزج بين الأجزاء القصيرة والطويلة،
كقول ابن عربي⁵⁸:

هذا الوجود العام علمي به أولى
لأنه إنعام من سيد مولى
و يومه من عام في الشمس إذ تجلى
ترى البصير بلا نصير يعطي البشير
إعطاء ذات بلا صفات سوى السمات
فأنفض إلى مأوى الألى من عند لا

و قد تنظم الموشحة على شكل القصيدة العمودية، كقول ابن سهل⁵⁹:

⁵⁷ -المصدر السابق، ص: 93.

⁵⁸ -المصدر نفسه، ص: 279.

⁵⁹ -المصدر نفسه، ص: 182.

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر و خفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

الطبيعة العروضية:

قلب الموشح موازين القصيدة العمودية على المستوى العروضي و ذلك بفعل ما تميز به من خصائص عروضية.

وكان ابن بسام أول من أشار إلى تلك الاستحدثات التي أتى بها الوشاحون، فقال متحدثا عن أوزان الموشحات: "إن أكثرها على غير أعاريض العرب"⁶⁰ و جاء بعده ابن سناء الملك ليعين الطبيعة الإيقاعية للموشح، ثم أعقبه الصفدي و غيره من القدماء، و مصطفى عوض الكريم و فوزي سعد عيسى و غيرهما من المحدثين، الذين قرروا ما ورد عنده و وضحوه، و أضافوا إليه فاكتملت بذلك نظرية الموشح في هذا الجانب.

ويُستخلص من كلام ابن سناء الملك ومن جاء بعده أن الوشاحين -في مجال الوزن- يسلكون طريقتين أساسيتين: أولاهما: أن يستخدموا بحورا خليلية، والأخرى أن يخرجوا عن تلك البحور. قال ابن سناء الملك: "والموشحات تنقسم قسمين، الأول: ما جاء على أوزان أشعار العرب، والثاني: مالا وزن له فيها و لا إمام له بها"⁶¹.

فهناك من الوشاحين الأندلسيين من بقي على أصول العروض الخليلية، وذلك فيما يخص النوع الأول من أوزان الموشحات. و هذا النوع جعله ابن سناء الملك -بحق أو غيره- "من النسج المرذول. وهو (عنده) بالمخمسات أشبه منه بالموشحات،

⁶⁰ - ق 1 م 1، ص: 468.

⁶¹ - "دار الطراز"، ص: 44.

ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء، ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف، ويتشيع بما لا يملك⁶². و فيما يلي أمثلة توضح ذلك:

يقول ابن زهر:

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك و إن لم تسمع

فهذا من بحر الرمل ويسميه ابن سناء الملك بالموشح الشعري⁶³.

وهناك ما جاء على بحر المديد كقول أحدهم⁶⁴ :

يا شقيق الروح من جسدي أهوى بي منك أم لمم

ومن أمثلة التجديد العروضي في الموشح مايلي:

1- أن تتخلل " أقفاله وأبياته كلمة أو حركة ملتزمة، كسرة كانت أو ضمة أو

فتحة، تخرجه عن أن تكون شعرا صرفا، وقريضا محضا، كقول ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني

فهذا من المنسرج وأخرجه منه قوله : معذبي كفاني " ⁶⁵.

ويبين ابن سناء الملك مثال الحركة، وذلك " بأن تُجعل على قافية في وزن

ويتكلف شاعرها أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها، كقوله :

يا ويح صب إلى البرق له نظر وفي البكاء مع الورق له وطر

فهذا من البسيط، والتزام إعادة القافية في وسط الوزن على الحركة المحفوظة هو

الذي أشرنا إليه " ⁶⁶، فكأن استعمال القاف المكسورة في وسط الوزن فصل المصراع

إلى جزئين وكسر بذلك قيد المؤلف من الوزن ⁶⁷.

62 -المصدر نفسه، ص: 44.

63 - المصدر نفسه.

64 - المصدر نفسه.

65 - المصدر نفسه، ص: 46.

66 - المصدر نفسه.

67 - ينظر مصطفى عوض الكريم: " فن التوشيح " ، ص : 67 .

2- يذكر الدكتور مصطفى عوض الكريم أن الوشاحين، قد يعمدون إلى التنويع في الأوزان على مستوى الموشح الواحد، كقول أحدهم :⁶⁸

الحب يجنيك لذة العذل واللوم فيه أحلى من القبل
لكل شيء من الهوى سبب جد الهوى بي وأصله اللعب
وأن لو كان جد يغني كان الإحسان من الحسن

3- اختلاف عدد التفعيلات في البحر الواحد بين غصن وآخر، فيأتي الغصن الأول بتفعيلتين ، والغصن الثاني بتفعيلة واحدة، كقول ابن حزمون :⁶⁹

يا عين بكّي السراج الأزهرا النيرا اللامع
وكان نعم الرتاج فكسّرا كي تُنثرا مدامع

يقول الدكتور مصطفى عوض الكريم موضحا المثال السابق: " فكل غصن من الأغصان الجيمية تفعيلتان من الرجز، وكل غصن من الأغصان الأخرى تفعيلة واحدة من نفس البحر " ⁷⁰.

أما القسم الثاني من الموشحات، فهو "ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب. وهذا القسم منها هو الكثير، والجم الغفير، والعدد الذي لا ينضبط ⁷¹. وهنا تبرز صعوبة حصر هذه الأوزان وتلقيدها. وقد حاول ذلك ابن سناء الملك، ولكن محاولته باءت بالفشل. يقول ذاكرة ذلك: " وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دفترها لحسابها، وميزاناً لأوتادها وأسبابها، فعز ذلك وأعوز، لخروجها عن الحصر، وانفلاتها من الكف " ⁷².

وهذه الأوزان الجديدة يمكن معرفتها بطريقتين :

68 - ينظر: المرجع السابق ، ص : 67 .

69 - المرجع نفسه ، ص : 67 - 68 .

70 - المرجع نفسه ، ص : 68 .

71 - ابن سناء الملك : المصدر السابق ، ص : 46-47 .

72 - المصدر نفسه ، ص : 47 .

1- يقول ابن سناء الملك : " قسم لأبياته وزن يدركه السمع ويعرفه الذوق كما تُعرف أوزان الأشعار، ولا يُحتاج فيها إلى وزنها بميزان العروض، وهو أكثرها"⁷³.

2- قسم يعرف بالتلحين لأنه " مضطرب الوزن، مهلهل النسخ، مفكك النظم، لا يحس الذوق صحته من سقمه، ولا دخوله من خروجه، كقول الأعمى التطيلي:

أنت اقتراحي لا قرب الله اللواحي
من شاء أن يقول فإني لست أسمع خضعت في هواك وما كنت لأخضع
حسي على رضاك شفيع مشفع
نشوان صاح بين ارتياح وارتياح⁷⁴

ويؤكد ابن سناء الملك أن مثل هذا النوع من الموشحات لا يستقيم وزنه إلا بالتلحين، فيقول: "لا يعلم صالحه من فاسده، وسالمه من مكسوره إلا بميزان التلحين، فإن منه ما يشهد الذوق بزحافه، بل بكسره، فيجبر التلحين كسره، ويشفي سقمه، ويرده صحيحا ما به قلبة، وساكننا لا تضطرب فيه كلمة"⁷⁵. كما يرى ابن سناء الملك أن هذا النوع " لا يعلمه إلا العالمون من أهل هذا الفن، والملائكة المقربون من أهل هذه الصناعة. ومثل هذا لا يقدم عليه إلا مثل الأعمى. وإلا فالبصير يحذره، ولا ينظره"⁷⁶. وفي هذا الكلام ما يوضح صعوبة نظم هذا النوع من الموشح، ويؤكد قيمته الكبرى .

3- وهناك نوع ثالث يستوجب توفر دعامة ما، كلفظ معين أو كلمة مخصوصة، تعين المغني على إقامة لحنه بصفة ملائمة. يقول عنه ابن سناء الملك :

73 - المصدر السابق ، ص : 49 .

74 - المصدر نفسه.

75 - المصدر نفسه ، ص : 50.

76 - المصدر نفسه.

وقسم لا يحتمله التلحين ولا يمشي به إلا بأن يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازا للمغني ، كقول ابن بقي :

من طالب ثأر قتلي ظيات الحدوج فتانات الحجيج

فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول " لا لا " بين الجزئين الجيمين من هذا القفل"⁷⁷.

وبدراسة ابن سناء الملك العروضية، يتضح أن عملية بناء الموشح عروضيا، عملية واعية، فهو لا يُنظم بعشوائية أو تلقائية. وقد قدم الدكتور يوسف عيد ونظيره الدكتور فوزي سعد عيسى دراسة حديثة تبين أن باب التحرر على مستوى العروض قد بدأ مبكرا في الشعر العربي، فقد انشغل الوشاحون باختيار البحور الشعرية المناسبة. وهذا يمكن توضيحه على النحو الآتي:

أورد كل من الدكتور فوزي سعد عيسى والدكتور يوسف عيد تفسيرات مهمة، أضاءت الجانب الخفي من زاوية الأوزان الخاصة بالموشح، وبيّن كلاهما أن الطريقة العروضية له أحدثت بعض التغيرات يمكن توضيحها كما يلي :

ولّد الوشاحون أوزانا جديدة منها: الممتد، والمنسرد، والمتد، والمطرّد، والمستطيل⁷⁸. وهذه بحور مهمة أخذت تفعيلاها من تفعيلات البحور الشعرية المعروفة، لكن بزيادة بعض الحركات أو نقصانها . ومن ذلك ما يلي :⁷⁹

مفاعيلان فعولن فاع
فعولان مفاعيل
مفاعيلاتن مفاعيلن فع
فعولاتن فعولن فع

⁷⁷ - المصدر السابق، ص : 50.

⁷⁸ - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 107.

⁷⁹ - ينظر : يوسف عيد : " التوشيح في الموشحات الأندلسية " ، ص : 79 .

مستفعلاتن فعلن مفاعيل (فعولان)

مفعولاتن فعلن فعلن

مفعولاتان فعلن مفعول

ويذكر الدكتور فوزي سعد عيسى أن الوشاحين استخدموا بعض التفعيلات المعروفة سابقا، لكن غيروا بحورها؛ فقد وضعوا أيديهم على فكرة "الأصول" في الدوائر الخليلية، فاستفادوا منها، كما استفادوا من فكرة الزحافات والعلل، ومن فكرة المشطور والمنهوك . ونظروا إلى البحور المهمة والقديمة والمستعملة، وولدوا منها أوزانا جديدة، منها ما يدخل في باب "المشتبه"، ومنها ما يدخل في باب "المولد"⁸⁰. ومن أمثلة ذلك ما يلي :

نظم أحد الوشاحين على وزن المستطيل، وهو مأخوذ من الطويل فقال :⁸¹

قلوب تصابت بألحاظ تصيب

فقل: كيف تبقى بلا وجد قلوب

وقد جاءت تفعيلات هذا الموشح على النحو الآتي :⁸²

مفاعي فعولن مفاعيلن فعولن

مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعول (فعولن)

ومن الأمثلة: ما قاله ابن الفرس في بعض من موشح له :⁸³

يا من أغالبه والشوق أغلب

وأرتحي وصله والنجم أقرب

سددت باب الرضا عن كل مطلب

80 - المرجع السابق ، ص : 105 .

81 - السيد مصطفى غازي : " ديوان الموشحات الأندلسية " ، م2، ص:177.

82 - ينظر: فوزي سعد عيسى : المرجع السابق ، ص : 106 .

83 - السيد مصطفى غازي: المصدر السابق ، ص: 123.

وهذه الموشح من أصل المجتث وزنها :⁸⁴

مستفع لن فاعلاتن فاعلاتن

ونظم ابن عربي على منهوك البسيط، فقال من موشح له :⁸⁵

يا صاح إن القلوب

أضحت بسرّ الغيوب في نعيم

وتفعيلاته هي : (مستفعّلن فاعلن) ثلاث مرات في الأدوار و(مستفعّلن

فاعلان- مستفعّلن فاعلان) في الأقفال. وهذه التفعيلات تتقاطع مع بحر المجتث⁸⁶.

أما مخلع البسيط، فقد أكثر الوشاحون النظم فيه، لكن بأضرب جديدة⁸⁷.

وللأعمى التطيلي موشح نظمه على مخلع البسيط، يقول منه :⁸⁸

يا نازح الدار سل خيالك ينيك أن صرت كالخيال

أحب به زائرا ألما

أباح وردا ما كان يحمي

من مبسم ذي غروب ألمى

أكرع في برده وأظما

أعجب به موردا أنالك زيادة الظما بالزلال

وأقفال هذا الموشح وأدواره وزنها : (مستفعّلن فاعلن فعولن). ماعدا الشطر

"أباح وردا " فقد شد وزنه⁸⁹.

84 - فوزي سعد عيسى : المرجع السابق ، ص : 107 .

85 - السيد مصطفى غازي: المصدر السابق ، ص: 293.

86 - ينظر المصدر نفسه .

87 - يوسف عيد : المرجع السابق ، ص : 28.

88 - يوسف عيد : المرجع نفسه.

89 - المرجع نفسه ، ص : 29.

وهذا التداخل في الأوزان أوضحه الدكتور فوزي سعد عيسى بقوله: " قد يلتبس الهزج بالمطرّد، والمديد بالرمل، والطويل بالمقتضب، والمطرّد بالمقتضب، والمنسرح بالرجز أو السريع " ⁹⁰.

كما جمع الوشاحون بين المشطور والمنهوك في قفل البيت، ولم يوازنوا بين الشطرين، فجاء أحدهما أطول أو أقصر من سائر الأجزاء، و" كأنما أرادوا بذلك تمييز القفل في البيت، وتنويع اللحن فيه تنوعاً يؤذن بختامه " ⁹¹.

ويذكر الدكتور فوزي سعد عيسى أن الوشاحين: " نظموا شطر البيت "مضفراً" بفقرة أو فقرتين وأعقبوه بفقرة أو فقرتين فأتوا به "مذيلاً" أو قدموا عليه فقرة فأتوا به "مرؤوساً" وقدموا عليه فقرة وأعقبوه بأخرى فأتوا به "مجنحاً" وجعلوه مذيلاً أو مرؤوساً في القفل... " ⁹².

وذيل الوشاحون الموشح بفقرة على اليمين، كما في قول عبادة بن ماء السماء:

من ولي في أمة أمرا ولم يعدل

يعزل إلا لحاظ الرشيا الأكحل

وهذا من مذيّل السريع ⁹³.

ومن أمثلة المذيّل بفقرة من اليسار: قول ابن زهر: ⁹⁴

هل لقلبي قرار

والأحبة ساروا رواحا

⁹⁰ -المرجع السابق، ص: 108.

⁹¹ - السيد مصطفى غازي: " في أصول التوشيح "، ص: 61-62، نقلا عن فوزي سعد عيسى: المرجع السابق، 108.

⁹² - ينظر: المرجع نفسه.

⁹³ - يوسف عيد: المرجع السابق، ص: 38.

⁹⁴ - السيد مصطفى غازي: " ديوان الموشحات الأندلسية"، م 2، ص: 68.

وهذا من مذيّل الخفيف.

وقال الششتري من المذيّل بفقرتين مايلي : ⁹⁵

حب رسول الله ديني لم لا وقد جلا
غياهب الشك باليقين

وهذا من مذيّل البسيط.

ويبين الدكتور فوزي سعد عيسى أن الوشاحين يجزئون في البيت كما في قول
ابن سهل ⁹⁶ :

هل يلحى في حمل ما يلقي عذري أبدى الصبا عذره
قد سر الحبيب أن أشقى وأنا راض بما سره

وقد جعل ابن سهل هذا المطلع من الرجز المشتبه بالسريع أو المقتضب .
ووزنه: فعولن - مستفعّلن - فعّلن ⁹⁷ .

ويجزئ الوشاحون الشطرين في الموشحة الواحدة كما فعل ابن شرف في إحدى
موشحاته : ⁹⁸

عقارب الأصداغ في السوسن الغض تسبي تقى من لاذ بالفقه والوعظ
ووزنها : ⁹⁹

مستفعّلن فعّلن مستفعّلن فعّلن مستفعّلن فعّلن مستفعّلن فعّلن
ويمضي هذا التنويع ويتضح مع قول ابن عربي من موشح له : ¹⁰⁰

إني أنا العبد كما هو الرب

95 - المصدر السابق ، ص : 364.

96 - المصدر نفسه ، ص : 198.

97 - ينظر : فوزي سعد عيسى : المرجع السابق ، ص : 109 .

98 - ينظر : المرجع نفسه

99 - ينظر : السيد مصطفى غازي : "ديوان الموشحات الأندلسية " ، م2، ص: 15.

100 - المصدر نفسه ، ص : 281.

ولي بذا عهد الفقر والذنب

من قربه بعد وبعده قرب

أعمى الورى فانظر ترى ماذا ترى

ترى العبر لمن نظر على السرر

ييدي العجاب خلف الحجاب ولا تجاب

والمقتطف السابق، جاءت أجزاء البيت فيه على نمطين :

أحدهما من ثلاثة أغصان مزدوجة، وشطره :

مستفعلن مستف، وهو من مشتبه البسيط .

والثاني من ثلاثة أغصان مجزأة إلى ثلاث فقر، وشطره :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن¹⁰¹

ويليهما قفل مكون من سمطين، أولهما على وزن :

مستفعلن مستفعلن فعلم

والثاني :

مستفعلن مستفعلن فعلم¹⁰²

وذلك حيث يقول :¹⁰³

عند النداء إذا تملا

كأس النديم بالمورد الأحلى

ويضيف الدكتور يوسف عيد، موضحاً تلك الاستحداثات التي أتى بها

الوشاحون، فيقول : " أضاف شعراء الموشحات أوزاناً جديدة كثيرة معظمها ذات

تفعيلتين . ولعل هذه الأوزان ذات التفعيلتين كانت أقرب إلى الأنغام والألحان

¹⁰¹ - ينظر: المصدر السابق، ص : 281.

¹⁰² - المصدر نفسه .

¹⁰³ - المصدر نفسه .

وآلات الطرب، وأكثر انسجاما للغناء لأنها أوزان قصيرة ذات إيقاع موسيقي لطيف بالأسماع، خفيف على الأرواح، يعطي نبرات أو نغمات سريعة تزيد الطرب وتدعو إلى الرقص¹⁰⁴. وهذا ما ساعد على ألفة الموشحات ومناسبتها للأذن رغم بعض الشذوذ العروضي .

التقفية :

إلى جانب التفنن العروضي كان هناك تنوع في القوافي؛ فلم يحفل الوشاحون بالقافية الموحدة، بل كسروا هذه الرتبة وعمدوا إلى التعدد .

ويذكر الدكتور فوزي سعد عيسى أن الغرض من تعدد القوافي عند الوشاحين هو إثراء الموشحة بالموسيقى، وإمدادها بالحوية، وإذكاء درجة التأثير لديها¹⁰⁵ .

ويوضح الدكتور السيد مصطفى غازي طريقة تنوع القوافي داخل الموشحة فيقول : " وتختلف تقفية البيت في الموشحة باختلاف أنماط البنية، وأقل ما يبنى على قافيتين فصاعدا، إلى عشر قواف . ويتراوح عدد القوافي في الدور بين قافية وخمس قواف، وتتراوح في القفل بين قافية وثمان قواف، وما كان مبنيا على قافية في الجزء فصاعدا إلى أربع قواف . وقد يبنى على قواف مختلفة أو متفرقة، وقد يجمع المتفق منها والمختلف في تقفيته " ¹⁰⁶ .

ومن أمثلة الموشحات التي بنيت على قافيتين: موشحه الأعمى التطيلي "ضاحك عن جمان" : ¹⁰⁷

¹⁰⁴ - " التوشيح في الموشحات الأندلسية " ، ص : 80 .

¹⁰⁵ - ينظر : المرجع السابق ، ص : 14 .

¹⁰⁶ - " في اصول التوشيح " ، ص : 11-12، نقلا عن فوزي سعد عيسى : المرجع السابق ، ص:111.

¹⁰⁷ - ابن سناء الملك : المصدر السابق، ص:57.

ضاحك عن جمان سافر على بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدري
 آه مما أجد شفني ما أجد
 قام بي وقعد باطش متئد
 كلما قلت: قد قال لي أين قد
 وانشئ خوط بان ذا مهز نصر عابثه يدان للصبا والقطر
 كما تأتي القافية في القفل غير متنوعة، كما في قول الأعمى التطيلي¹⁰⁸:
 أنت اقترحي لا قرب الله اللواحي
 من شاء أن يقول فإني لست أسمع خضعت في هواك وما كنت لأخضع
 حسبي على رضاك شفيع مشفع
 نشوان صاح بين ارتياح وارتياح
 يا من يطيل عتي ولا يحظى بطايل أين الشمول بالله من تلك الشمائل
 حبايل العقول فدتها ما حبايل
 هل في جماعي شوقا إليها من جناح
 حب الملاح فرض وباقي الظرف سنه والحسن فتنة وكفى بالحسن فتنة
 ويعمد الوشاحون إلى الترصيع في القوافي مزاحمين بينها. وقد وصف ابن سعيد
 الوشاح ابن حزمون " بأن له قدرة على مضايقة القوافي " ¹⁰⁹ ، إذ جمع في موشحته
 التي رثى فيها أبا الحملات، حشدا كبيرا من القوافي، وعمد إلى تجنيسها في الأدوار¹¹⁰،
 إذ يقول¹¹¹:
 ما المدامع مع صاب عليك أولى أن يجود

¹⁰⁸ - المصدر السابق ، ص: 112.

¹⁰⁹ - " المغرب في حلى المغرب " ، ج2، ص: 217.

¹¹⁰ - ينظر: فوزي سعد عيسى: المرجع السابق ، ص: 111-112.

¹¹¹ - السيد مصطفى غازي: " ديوان الموشحات الأندلسية " ، ص: 137.

سقى البرية صاب رزء أحلك اللحد

فكل خلق أصاب إلا النصارى واليهود

ناديت قلبا مصاب يجري على الميت العهود

وتزداد المزاحمة في القفل الأخير حيث يقول: ¹¹²

يا قلبي المهتاج تصبرا زان الثرى مدافع

ابن أبي الحجاج فهل ترى لما جرى مدافع؟

كما قام الششتري بالتجنيس داخل الأقفال الخاصة ¹¹³. ومن أمثلة ذلك ما

يلي:

صاح لاح الصباح للحبر

بعد ليل دجاء بالحبر

أشرقته شمس له لمرآته

وتوارى حجاب ظلماته ¹¹⁴

وقد وضع الدكتور مصطفى عوض الكريم تخطيطا بين فيه أبسط صورة تقفية

داخل الموشح، فكانت على النحو الآتي: ¹¹⁵

أ أ أ

ب ب ب

ح ح ح

ب ب ب

د د د

¹¹² - المصدر السابق ، ص :137.

¹¹³ - ينظر: فوزي سعد عيسى : المرجع السابق ، ص:112.

¹¹⁴ - السيد مصطفى غازي : المصدر السابق ، ص:351.

¹¹⁵ - ينظر: " فن التوشيح "، ص : 57.

ب ب

وهذا الشكل، كما يذكر الدكتور مصطفى عوض الكريم، شبيهة بالمسمطة الخمسة التي تأتي على النحو الآتي :¹¹⁶

أ أ

ب

ح ح

ب

د د

ب

ويعد هذا المخطط الأكثر بساطة في بناء الموشحة، حيث تختلف قوافي الأقفال، وتتعدد قوافي الأدوار؛ فالحالة الأولى مكونة من خمسة أجزاء، ثلاثة منها على القافية الفرعية، واثنان على القافية المكررة¹¹⁷.

وفي الحالة الثانية أربعة أجزاء على القافية الفرعية وواحد على القافية المكررة¹¹⁸.

ويشير الدكتور مصطفى عوض الكريم إلى أن هذه الصورة قد تفقدنا إلى اعتقاد أن الموشح ماهو إلا تطوير للمسمطة من حيث التقفية، وذلك لأن طريقة تقفية الموشح معقدة جدا . ويضيف الدكتور مصطفى عوض الكريم أن غالبية الوشاحين يجذون الشكل الآتي في تقفية موشحاتهم :¹¹⁹

أ ب

¹¹⁶ - ينظر : المرجع السابق ، ص : 58.

¹¹⁷ - ينظر : المرجع نفسه.

¹¹⁸ - ينظر : المرجع نفسه.

¹¹⁹ - ينظر : المرجع نفسه .

أ ب

ح د

ح د

ح د

أ ب

أ ب

ومن أمثلة ذلك قول ابن غياث من إحدى موشحاته¹²⁰:

طال عنهم مغربي فلم يراعوا ودادي
هذا شأن الغريب ينسى بطول البعاد
لم يكن باختياري لكن بحكم القضاء
رحلتي عن ديارى فصرت في الغرباء
إن سلوت فهاري أطلت ليلي بكائي
ليس لي محيب في الليل حيث أنادي
غير دمع سكيب ولا عج في ازدياد

ويبرز لنا الدكتور فوزي سعد عيسى مقدرة الوشاحين على التلاعب بالقوافي،
بتشبيههم بمن يرقصون على السلاسل، يتحركون بحرية ضمن قيودهم التي غيروا
منها، لكنهم لم يستبدلوها¹²¹.

موضوعات الموشح :

يرى ابن سناء الملك وغيره من المنظرين لفن التوشيح، أن للوشاح أن ينظم في
جميع الأغراض التي كانت القصائد التقليدية تنظم فيها . قال ابن سناء

¹²⁰ - السيد مصطفى غازي : " ديوان الموشحات الأندلسية " ، ص:139.

¹²¹ - ينظر: المرجع السابق ، ص 113.

المملك: "والموشحات يُعمل فيها ما يُعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والثناء والهجو والمجون والزهد" ¹²².

وأبرز أغراض الموشح هي: الغزل، والخمر، والمدح، والطبيعة، والثناء، والهزل، والمجون، والزهد والتصوف. وقد يجمع الموشح بين أكثر من غرض، كالغزل والمدح، على نحو ما يُفعل في القصيدة التقليدية.

وفيما يلي أمثلة على موشحات الأندلسيين، توضح قول ابن سناء الملك وغيره.

1- الغزل :

لا تُحصى الموشحات الغزلية. وقد أجاد الوشاحون في هذا الغرض. ولما كان الوشاحون في بادئ الأمر شعراء قصيدة غدت معانيهم الغزلية هي نفسها في الموشح، ونفس الأمر بالنسبة إلى الوشاحين المختصين في فن التوشيح؛ فعواطف الشوق، وإظهار اللوعة، ووصف أيام الفراق، وتصوير الجمال الحسي، مترددة في كل زمان ومكان. كل ذلك مشاع بينهم. وليس الاختلاف إلا في طريقة التناول ¹²³.
والمرأة هي مركز الغزل في الموشح كما في القصيدة؛ فهي الشمس، والبدر، والصباح...

ومن نماذج الموشحات الغزلية قول ابن شرف من موشح له ¹²⁴:

من أطلع البدر على جبينك
وأودع السحرا بين جفونك
وروع السمرا بفرط لينك
يا لك من قد مهما تأود
أهدى إلى الزهر خذا مورد

¹²² - "دار الطراز"، ص: 51.

¹²³ - ينظر فوزي سعد عيسى: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 22.

¹²⁴ - السيد مصطفى غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 26.

ومن تلك النماذج موشح الأعمى التطيلي المشهور " ضاحك عن جمان " . وقد تفوق فيه على بعض معاصريه من وشاحي الأندلس، فقد ذكر ابن خلدون : " أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس من مجالس إشبيلية واستحضر كل واحد منهم موشحة، ألفها وتأنق فيها، فتقدم الأعمى التطيلي لإنشاد موشحته، وماكاد ينتهي حتى قام كل وشاح بتمزيق موشحته إعجابا بها " ¹²⁵ .

يقول التطيلي من موشحه السابق الذكر : ¹²⁶

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدري
آه مما أجد شفي ما أجد
قام بي وقعد باطش متد
كلما قلت قد قال لي أين قد

وانثنى خوط بان ذا مهز نضر عابثة يدان للصبا والقطر
ويرتبط الموشح، مثل القصيدة، بموضوع التغزل بالغلمان والسقا لكثرة مجالس الشراب. وفي الموشحات التي نظمت في هذا الموضوع تنقل المعاني الأنوثية المتعلقة بغزل المرأة ¹²⁷ .

2- الخمرة :

لا تختلف الموشحات الخمرية في معانيها عن القصائد الخمرية، فالوشاحون يهتمون بذكر ألوانها ويصفون مجالسها وما فيها من طرب، وما يحفها من مناظر طبيعية، ويتغزلون بسقاتها ¹²⁸ ، كقول الأعمى التطيلي ¹²⁹ :

¹²⁵ - " المقدمة"، ص 1139 - 1140.

¹²⁶ - ابن سناء الملك : " دار الطراز " ، ص : 57.

¹²⁷ - ينظر فوزي سعد عيسى: " الموشحات والازجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 36.

¹²⁸ - ينظر : المرجع نفسه ، ص : 55.

¹²⁹ - ابن سناء الملك : دار الطراز ، ص : 63.

أدر لنا أكواب يُنسى بها الوجد واستحضر الجلاس كما اقتضى الود
دن بالصبا شرعا ما عاشت يا صاح
ونزه السمعاء عن منطق اللاحي
فالحكم أن تسعى عليك بالراح
أنامل العناب ونقلك الورد حف يصدغي آس يلويهما الخد

3- المدح :

من الطبيعي أن يكون المدح من أغراض الموشحات، إذ كان مخترع الموشح شاعر البلاط الملكي يصاحب الأمراء ويسعى إلى التقرب منهم¹³⁰.
وقد تُستهل موشحة المدح مثل قصيدة المدح بالغزل أو وصف الطبيعة والخمور وذلك قبل الولوج إلى الغرض العام، ويمكن أن تستقل الموشحة بغرض المدح¹³¹.
ومن نماذج الموشحات المنظومة في غرض المدح الموشحة المشهورة التي قالها ابن الخطيب مادحا الغني بالله صاحب غرناطة. يقول منها¹³² :

مصطفى الله سمي المصطفى الغني بالله عن كل أحد
من إذا عقد العهد وفي وإذا ما فدح الخطب عقد
من بني قيس وسعد و كفى حيث بيت النصر مرفوع العمد
حيث بيت النصر محمي الحمى وجنى الفضل زكي المغرس
واهوى ظل ظليل خيما والندى هب إلى المغترس

ويذكر الدكتور مصطفى الشكعة وغيره من الباحثين أن موشحات المدح قد تخرج أحيانا كثيرة عن الغرض العام (المدح)، إلى تهنئة الأمراء بحلول مناسبات كثيرة.

¹³⁰ - ينظر : فوزي سعد عيسى : " الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين "، ص : 68-69.

¹³¹ - ينظر : المرجع نفسه.

¹³² : السيد مصطفى غازي : " ديوان الموشحات الأندلسية "، م2، ص 488.

ومن ذلك ما نجده عند ابن زمرك في موشحاته التي مدح فيها أمير غرناطة في مناسبات خاصة . وتتردد في موشحات المدح معاني الكرم، والعلم، والأخلاق السامية، وذكر المقام العالي وذلك على نحو ما نجده في القصيدة التقليدية¹³³. ومما قاله ابن زمرك في مدح الغني بالله صاحب غرناطة مايلي¹³⁴ :

مؤمن العدوئين مما يخاف من سطوة العدا
وفارج الكرب إن ألما ومذهب الخطب و الردى
قد راق حسنا وفاق حلما وما عدا غير ما بدا

وقد بين الدكتور فوزي سعد عيسى أن مضمون موشحة المدح ينطوي على معالم كثيرة وُجدت في مقدمات المدائح الشعرية عند شعراء القصيد، منها: وقوف الوشاحين على الديار، وذكرهم لمشاق الرحلة إلى الممدوح¹³⁵.

ويلاحظ الدكتور مصطفى عوض الكريم أن موشحات المدح التي تتناول مدح الرسول (ص) تتضمن وصف عواطف الشوق وتصوير الحنين إلى رؤية الروضة الشريفة¹³⁶. وقد أجاد الوشاحون في هذا الغرض، ومنهم ابن الصباغ الذي يقول من موشحة له¹³⁷:

لأحمد بهجة كالقمر الزاهر في أبرج السعد
علاؤها يسبي بنوره الباهر كل سنا مجد

¹³³ - ينظر: "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه"، ص: 436 .

¹³⁴ - السيد مصطفى غازي: "المصدر السابق"، ص: 510.

¹³⁵ - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 71.

¹³⁶ - ينظر: "فن التوشيح"، ص: 34 .

¹³⁷ - السيد مصطفى غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 411.

4- وصف الطبيعة :

يرى بعض الدارسين لفن التوشيح، أنه من البديهي أن يكون وصف الطبيعة أحد أغراض الموشح البارزة، فقد عُرِفَت الأندلس بجمال طبيعتها واشتهرت بتنوع الرياض وكثرتها . وقد سُمِّي بعض الشعر "شعر الروضيات"، واستقلت القصائد بها وصفا وإشادة¹³⁸. لذلك نجد الدكتور مصطفى الشكعة يقول: "وتقلد وشاحو الأندلس المرتبة الثانية بعد شعراء القصيدة في نفس الغرض، فوصفوا الأنهار وخلعوا عليها مجموعة من الألوان البهيجة وذكروا صورها المتحركة الفعالة"¹³⁹. وعلى غرار ذلك يقول ابن زهر من إحدى موشحاته¹⁴⁰:

فتق المسك بكافور الصباح ووشت بالروض أعراف الرياح

فاسقنيها قبل نور الفلق

وغناء الورق بين الورق

كاحمرار الشمس عند الشفق

نسج المزج عليها حين لاح فلك اللهو وشمس الإصطباح

ويذكر الدكتور فوزي سعد عيسى أن الوشاحين يمزجون بين وصف الطبيعة وأغراض أخرى، كالغزل والخمر، لأن مجالس الشراب كثيرا ما كانت تقام في رحاب الطبيعة. وقد يرتبط ذلك كله بغرض الحنين إلى الوطن، ووصف جمال طبيعته، فيجسد الوشاح ملامح الغربة في موشحته، ويستنهض عواطف الحزن وآلام فراق الأرض والأحبة¹⁴¹.

ويظهر ذلك في قول ابن زمرك في موشحة ضمنها شوقه إلى غرناطة¹⁴²:

¹³⁸ - ينظر: فوزي سعد عيسى: المرجع السابق، ص: 49.

¹³⁹ - "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه"، ص: 422.

¹⁴⁰ - السيد مصطفى غازي: المصدر السابق، ص: 118.

¹⁴¹ - ينظر: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 49.

¹⁴² - السيد غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 507.

أبلغ لغرناطة سلامي وصف لها عهدي السليم
فلو رعى طيفها ذمامي ما بت في ليلة السليم
كم بت فيها على اقتراح أعل من خلة الرضاب
أدير منها كؤوس راح قد زانها الثغر بالحجاب
أختال كالمهر في الجماح نشوان في روضة الشباب
أضاحك الزهر في الكمام مباحيا روضه الوسيم
وأفضح الغصن في القوام إذ هب من جوها نسيم

5- الرثاء :

قد يُستبعد أن تُنظم الموشحات، وهي التي أنشئت للغناء، في أغراض كالرثاء، غير أن وجود بعض الموشحات الأندلسية المنظومة في هذا الغرض جعل المنظرين لهذا الفن يقولون بجواز استخدامه لغرض الرثاء .

ومن الأمثلة على موشحات الرثاء: موشح لابن حزمون نظمه في رثاء أبي الحملات، قائد الأعنة بيلنسية، الذي قتله نصارى الاسبان. ومنه ما يلي¹⁴³:

يا عين بكى السراج الأزهرا النيرا اللامع
وكان نعم الرتاج فكسرا كي تنثرا مدامع
من آل سعد اغر مثل الشهاب المتقد
بكي جميع البشر عليه لما أن فقد
والمشرفي الذكر والسمهري المطرد
شق الصفوف وكر على العدو متد
لو أنه منعاج على الورى من الثرى أو راجع
عادت لنا الافراح بلا افترا ولا امترا تضاجع

¹⁴³ - المصدر السابق ، ص : 135.

ومن نماذج الموشحات المنظومة في هذا الغرض الموشحات الخمس التي قالها ابن جبير في رثاء زوجه "أم المجد". وقد جعلها في جزء من ديوانه، خصصه لذلك، سماه: "نتيجة وجد الجوانح، في تأيين القرين الصالح". ولكن ما يزال في حكم الضائع من الأدب الأندلسي¹⁴⁴.

وهناك رثاء المدن والممالك، مثل موشحة لابن اللبانة، قالها في رثاء المعتمد بن عباد، والبكاء على زوال حكمه، ومنها قوله¹⁴⁵:

من لي بمدح بني عباد ومن يحمدهم إحمادي
تلك هبات بلا ميعاد عذرت من أجلها حسادي
حكنتي الورق بين الورق راشوا جناحي ثم طوقوا عنقي
الله ملك عليه اعتماد من يعرب وهو أسناهم يدا
وهم إذا عن وفد وفدا سالوا بحارا وصالوا أسدا

ويرى الدكتور فوزي سعد عيسى أن الموشحات التي تتناول الرثاء يُشترط فيها الابتعاد عن الغنائية المفرطة، كما يشترط إضفاء نوع من جدية المناسبة¹⁴⁶.

6- الهجاء :

قد يظهر أن الهجاء لا يتناسب وفن التوشيح الذي نشأ للغناء والطرب. إلا أن بعض الوشاحين الأندلسيين قد نظموا في هذا الغرض. فجاز، تبعاً لذلك، للوشاح - أي وشاح - أن ينظم في ذلك الغرض. ومن نماذج ذلك: موشحات نظمها ابن حزمون، عارض فيها بعض الوشاحين الأندلسيين. وقد اشتهر ابن حزمون بالهجاء اللاذع، وسيطرت التزعة الحجاجية على موشحاته. وقد سجل موشحاته الهجائية

¹⁴⁴ - ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة"، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، س5، ج2، ص: 608.

¹⁴⁵ - ابن سناء الملك: دار الطراز، ص: 74.

¹⁴⁶ - ينظر: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 81.

ابن سعيد في كتابه " المغرب ". ولكن الدكتور شوقي ضيف، محقق الكتاب، حذفها من نشرته لما فيها من بداء ¹⁴⁷ .

7- الزهد والتصوف :

قد يبدو لنا أن الموضوعات الدينية لا صلة لها بفن التوشيح، ذلك الفن الذي نشأ في أحضان الطرب، وتناول أصحابه الموضوعات اللاهية، كالغزل وما إليه، ولكن وجود كثير من الموشحات المنظومة في أغراض دينية، كالزهد والتصوف والمديح النبوي، جعل المنظرين، وفي طليعتهم ابن سناء الملك، يذكرون أن للشاح أن يوظف هذا الفن لطرق الموضوعات الدينية ¹⁴⁸ . ويكفي أن نستشهد ببعض الشاحين الأندلسيين، خاصة في عصر الموحدين، كابن عربي والششتري وابن الصباغ . وقد أكثر وشاحو ذلك العصر من النظم في الأغراض الدينية حيث تمثل الموضوعات الدينية عندهم حوالي ثلث ما نُظم في التوشيح في أغراض أخرى في العصر نفسه. وهذا دليل على طوعية الموشحة لمثل هذه الموضوعات ¹⁴⁹ .

فكان الزهد والتصوف بذلك نقطة تحول في مسار فن التوشيح؛ فبعد الحياة العابثة انتقل الشاح الأندلسي إلى حياة جدية وذات هدف. وكأنه يحقق بعضاً من التوازن النفسي. ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن الشاحين المتصوفين في الأندلس عبروا عن مشاعرهم بطاقة إيمانية كبيرة، وحققوا ذلك في لآلئ توشيح متقنة ¹⁵⁰ .

¹⁴⁷ - ينظر : ج2، ص : 214.

¹⁴⁸ - ينظر : ابن سناء الملك : " دار الطراز " ، ص : 51.

¹⁴⁹ - ينظر: فوزي سعد عيسى: " الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين "، ص : 83.

¹⁵⁰ - " الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه " ، ص : 440.

ويصف الوشاحون المتصوفون، مثل الشعراء، مجاهداتهم وأحوالهم، بما في ذلك من تعب ومشقة وأنواء الذنوب، ويرسمون نظرهم إلى الحياة بأسلوب رائع¹⁵¹، كقول ابن عربي :¹⁵²

يا منير القلوب

بشموس الغيوب

نفحات الحبيب

تتوالى عليا

فتريني الحق طلق الحيا

ويبين الدكتور فوزي سعد عيسى أن صور المتصوفين في موشحاتهم تصف مراحل تطورهم الروحي، حيث يغيب الوعي بالواقع وتمتزع إرادة المحب بإرادة المحبوب تحت نظام وحدوي تام. وهذا ما عرفت به موشحات ابن عربي الصوفية¹⁵³، إذ يقول من إحدى هذه الموشحات :¹⁵⁴

في الفنا عن فنائي

يبدو سر الرداء

والسنا و السناء

صمدا سرمديا

أحديا أزليا عليا

فابن عربي يرى أن الحق أصل كل موجود، وأنه يتخلل العالم بفيض من صفاته التي تجلت في كل شيء من الكون، وأن الإنسان جمع في نفسه هذه الصفات جميعا،

¹⁵¹ - ينظر: فوزي سعد عيسى: المرجع السابق ، ص : 92.

¹⁵² - السيد مصطفى غازي : " ديوان الموشحات الأندلسية " ، م 2 ، ص : 268 .

¹⁵³ - "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين " ، ص : 95.

¹⁵⁴ - السيد مصطفى غازي: " ديوان الموشحات الأندلسية " م 2، ص : 269.

فكان عالما صغيرا فيه كل ما في العالم الأكبر من صفات الجمال والجلال" ¹⁵⁵.
وكأنما يحاول رسم نظرية فلسفية عالمية تسهل على المتأمل فهم الغامض من الحقيقة
الكونية، والتخلص إلى سبيل أنجح وأسعد . ¹⁵⁶
ويحذو الششتري حذو أستاذه ابن عربي في ترديد أفكاره حول أصل وحدة
الوجود، فلا فرق بين المحب والمحجوب، أي بين الحق والخلق، فلا مجال للثنائية ¹⁵⁷ ،
فيقول من إحدى موشحاته ¹⁵⁸:

يا قد فشا سري بلا مقال
وقد ظهر غيبي بذا المشال
أرى وجود غيري من المحال
وكل من دوني خيال في
متحد المعنى في كل حي

وتُذكر الخمور في موشحات التصوف على سبيل الإشارة والرمز، كما هي
الحال في القصائد الصوفية، إذ منبع هذه الخمور هو الحب الإلهي المتدفق، شرها
حلال لا إثم فيه، وتسكر الأرواح وتصرف العقول عن كل ما هو دنيوي ¹⁵⁹. يقول
ابن عربي ¹⁶⁰:

في الراح راحة الروح يا صاحبي
فقل بها مقالة إفصاح
ما بين عاذلين و نصاح

¹⁵⁵ - فوزي سعد عيسى : المرجع السابق ، ص : 97 .

¹⁵⁶ - ينظر : المرجع نفسه .

¹⁵⁷ - ينظر : المرجع نفسه ، ص : 98 .

¹⁵⁸ - السيد مصطفى غازي : المصدر السابق ، ص : 367 .

¹⁵⁹ - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 96 .

¹⁶⁰ - السيد مصطفى غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 275 .

والله ما على شارب الراح فيه من جناح

على أن هناك ما يميز موشحات الششتري الصوفية وموشحات ابن عربي الصوفية؛ فالششتري يضمن زهدياته عواطف كبيرة ويميل إلى السهولة في اختيار المعاني والألفاظ حتى تكاد تقارب اللغة العامية، فتشيع بذلك موسيقى هادئة ذات شحنات نفسية قوية، ويجسد ذلك بأوزان قصيرة ومجزوءة. وهذا عكس ما كان ابن عربي يفعل¹⁶¹.

وهناك نوع من موشحات الزهد يذكره ابن سناء الملك فيقول: "وما كان منها في الزهد يقال له المكفر. والرسم في المكفر خاصة أن لا يعمل إلا على وزن موشح معروف وقوافي أقفاله، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفره، ومستقيل ربه عن شاعره ومستغفره"¹⁶² وسمي المكفر لأن الوشاح ينظمه سعيا منه إلى تكفير ذنوبه، فيكثر من ذكر الموت، ويعظم من ذكر الحياة الباقية¹⁶³.

ويوضح الدكتور فوزي سعد عيسى أن المكفر شبيه بنوع من الزهديات والتي سميت "بالممحصات". وقد نظمها ابن عبد ربه بعد أن بلغ من العمر عتيا¹⁶⁴، "وكفر بها جميع ما قال، وأحسن المقال، وسمها بالممحصات"¹⁶⁵.

ويذكر الدكتور مصطفى عوض الكريم أن ابن عبد ربه في محمصاته يدخل القصيدة منها صدر البيت الأول من غيرها والتي يريد أن يكفرها¹⁶⁶.

¹⁶¹ - ينظر: فوزي سعد عيسى: المرجع السابق، ص 94.

¹⁶² - "دار الطراز"، ص: 51.

¹⁶³ - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "فن التوشيح"، ص: 35.

¹⁶⁴ - ينظر: المرجع السابق، ص 88.

¹⁶⁵ - ابن دحية: "المطرب من أشعار أهل المغرب"، ص: 141، نقلا عن: مصطفى عوض الكريم: "فن

التوشيح"، ص: 35.

¹⁶⁶ - ينظر: المرجع السابق.

وقد تحدث بعض المصادر عن أبي مدين شعيب بن الحسين وهو من صلحاء تلمسان، بلغ تصوفه وزهده شهرة منقطعة النظير . وتُعتبر موشحات أبي مدين الصوفية مرآة أخرى لحياة المتصوفة. وهي شبيهة بموشحات الششتري. يقول من إحداها¹⁶⁷:

أنت يا قد سُقيت شارب من رائق كان أو كـدر
سهمك في الغير فيك صائب مالك من نصله مفر
ثمار ما قد غرست تجني وهذه عادة الزمان
خذ الحديث الصحيح مني كما يدين الفتى يـدان
من بات منه الورى في أمن بات من الدهر في أمان

ونلاحظ أن هناك تقاطعا بين استغراب الصوفية و استغراب الشعراء المعاصرين الرومانسيين؛ فكلهم يذكر آلام الحياة و يبطن منظوماته بمظاهر الشكوى، سائرا غير مهتد. وهو في بحث دائم عن الحقيقة و السعادة، ولكن البون شاسع بينهم في مجال آخر؛ فالصوفي عثر على الحل، وهو اتصاله بالله، لكن الرومانسي لم يحدد إطارا معينا، واكتفى بالطبيعة كعالم فسيح.

والذي يلاحظه الدارسون لفن التوشيح أن موشحات التصوف تختلف عن قصائد التصوف، فأصحابها يميلون إلى السهولة، وذلك حتى تناسب الغناء، وهم ييسرون فهمها حتى تناسب الأذواق، ويضمنونها بعض الكلمات التي تدل على نوعها الديني، "كالشطح"، و "الأسرار"، و "الأرواح"، وما إليها من رموز بسيطة¹⁶⁸.

¹⁶⁷ - محمد زكريا عناني: "ديوان الموشحات الأندلسية"، الاسكندرية: دار المعرفة، ط2، ص: 51 .

¹⁶⁸ - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات و الأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 91.

وإلى جانب المسلك الصوفي الذي سلكه الوشاحون، نجدهم متعلقين بحب الرسول (ص)، فيمدحونه ويشيدون بصفاته، ويعبرون عن شوقهم الكبير إلى زيارة قبره¹⁶⁹، كقول ابن الصباغ¹⁷⁰:

بأرض طيبة معهـد
شوقي إليه مجدـد
هل لي بتلك الطلـول
من زورة و مقيـل
يا قبر خير رسـول
حتى يراك ويسعد
صب بـعدك مكـد

طبيعة اللغة:

نجد لابن سناء الملك في "دار الطراز" ما يعد من قبيل التنظير للغة الموشح، كحديثه عن لغة الخرجة، و موقفه من التزним، وغير ذلك. كما نجد لابن حزمون وغيره من الوشاحين آراء في تلك اللغة. وللمحدثين، كالدكتور إحسان عباس و الدكتور مصطفى عوض الكريم، جملة ملاحظات ذات قيمة في هذا المجال. وقد اعتمدنا على تلك الأقوال و غيرها لبيان طبيعة تلك اللغة، وتحديد الشروط التي يلتزمها كل وشاح في تعامله مع اللغة، المادة الأولى و الأداة الأساسية للعمل الأدبي . وفيما يلي خلاصة لما انتهينا إليه في هذا الموضوع.

¹⁶⁹ - ينظر : المرجع السابق ، ص: 91.

¹⁷⁰ - السيد مصطفى غازي: " ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 394.

1- طبيعة المعجم:

أ- جسم الموشح:

يُنظم جسم الموشح، المركب من الأقفال والأدوار، بلغة فصحي وبألفاظ واضحة وسهلة، بحكم الحاجة الغنائية التي تقتضي انتقاء كلمات بسيطة و مألوفة . ولا يجيز ابن سناء الملك وغيره من الخبراء بفن التوشيح، استعمال العامية بتاتا. وإلا اعتُبر ذلك خروجا على القانون العام للتوشيح في قضية اللغة. وهذا الخروج يسمى "التزيم"*. وقد عُرف به الموشح الذي نظمه ابن غرلة، الأديب المغربي . وهو موشح شهير سماه ابن سناء الملك "بالعروس". وقد رفض التمثيل بهذا الموشح بسبب ما حواه من لغة عامية، وعبر عن ذلك قائلا: "الموشح المعروف بالعروس؛ وهو موشح ملحون. واللحن لا يجوز استعماله في شيء من ألفاظ الموشح إلا في الخرجة خاصة. ولهذا لم نورد مثاله"¹⁷¹.

ويذكر الدكتور مصطفى عوض الكريم أن لغة الموشحات الأولى تميزت بالبساطة. لكن الوشاحين المتأخرين أكثرها من استعمال الألفاظ والتراكيب الكلاسيكية¹⁷².

وقد أشار الدكتور إحسان عباس إلى أن لغة الموشح جاءت بملامح لغة شعر القريض¹⁷³. ويتجلى ذلك في الموشح الشهير للأعمى التطيلي - ضاحك عن جمان - الذي يقول منه¹⁷⁴:

* - التزيم: هو الدعي و هو الملحق بقوم. ينظر: "المعجم الوسيط"، مادة زيم.

¹⁷¹ - "دار الطراز"، ص: 35 .

¹⁷² - ينظر: "الموشحات و الأزجال"، ص: 15.

¹⁷³ - ينظر: "تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين"، ص: 245.

¹⁷⁴ - ابن سناء الملك: "دار الطراز"، ص: 57.

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان و حواه صدري
 آه مما أجد شفني ما أجد
 قام بي وقعد باطش متدد
 كلما قلت قد قال لي أين قد

و انثنى خوط بان ذا مهز نصر عابثته يدان للصبأ والقطر

وكان اختيار الوشاحين مقصورا على كل ما هو سهل، كما حبذوا الابتعاد عن كل وحشي نافر . غير أن بعض الدارسين اتخذوا من هذه السهولة منطلقا يحكمون به على لغة الموشح بالركاكة و الضعف. جاء في تعليق للدكتور جودت الركابي على موشحة ابن سهل "هل درى ظبي الحمى"، قوله: "لغة الموشحات يغلب عليها الضعف والركاكة. وهي، في لينها وحررتها و ائتلافها مع روح العامية، قادت اللغة الشعرية إلى الركاكة، و أساءت هذه الناحية إلى اللغة العربية"¹⁷⁵.

على أن الدكتور مصطفى عوض الكريم يؤكد أن السهولة التي طُبعت بها لغة الموشح خصيصة وميزة، وليست عيبا، كما يرى بعض الدارسين. ويشير إلى أن الوشاح كلما تحرى التصنع وإثبات المقدرة، زاد نصيبه من التكلف، وابتعد بذلك عن العفوية والتلقائية اللتين يمثلان منبع جمال الموشح ورونقه¹⁷⁶.

وقد اكتسحت ألفاظ البيئة الأندلسية الاستعمال اللغوي داخل جسم الموشح. ولم يقتصر ذلك على أغراض دون أخرى¹⁷⁷. يقول ابن عربي من موشح صوفي له¹⁷⁸:

¹⁷⁵ -جودت الركابي: "في الأدب الأندلسي"، ص306، نقلا عن يوسف عيد: "التوشيح في الموشحات الأندلسية"، ص: 18-19.

¹⁷⁶ - ينظر: "الموشحات و الأزجال"، ص:15.

¹⁷⁷ - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات و الأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 130.

¹⁷⁸ - السيد مصطفى غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 260.

دخلت في بستان الأنس و القرب لمكنسه
فقام لي الريحان يختال عن عجب في سندسه

ويُدخل الوشاحون، مثل شعراء القريض، ألفاظاً جديدة في جسم الموشح مستقاة من مصطلحات التصوف، مع شيوع الصيغ والتراكيب الأندلسية في خرجات الموشح، كصيغ التصغير في الغزل للدلالة على الظرف.

ويلاحظ على الموشحات الأندلسية استعمالها لكلمات قليلة الشهرة في المشرق نحو: "أكحل" بمعنى أسمى، و"السانية" أي الناعورة، و"الربض" بمعنى الضاحية أو ظاهر المدينة. لكن المؤكد هو أن الوشاحين لم يستخدموا العامية في جسم الموشح، بل حافظوا على الإعراب¹⁷⁹.

ب - الخرجة:

جاءت الخرجة على ثلاثة أنواع، نوضحها على النحو الآتي:

- الخرجة العامية:

اشترط ابن سناء الملك في هذه الخرجة أن تكون لغتها مغرقة في العامية فقال: "تكون الخرجة حجاجية* من قبل السخف، قزمانية** من قبل اللحن، حارة محرقة، حادة منضجة، من ألفاظ العامة ولغات الداصة". وهذا حتى يبلغ أثرها مداه في النفوس. على أن تتضمن مواضيع عبثية وغير جادة بفعل الحجاجية والقزمانية اللتين تنطوي عليهما. ومن أمثلة ذلك قول ابن زهر في خرجة له:¹⁸⁰

من خان حبيب الله حبيب

الله يعاقبه أو يثيب

¹⁷⁹ - ينظر: عمر فروخ: "تاريخ الادب العربي"، ج4، ص437 - 438.

* نسبة إلى ابن حجاج البغدادي، الشاعر المعروف باللهو.

** نسبة إلى ابن قزمان، الزجال المعروف بالأندلس.

¹⁸⁰ - السيد مصطفى غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 20.

ويشترط ابن سناء الملك أن تكون الخرجة العامية، "قولا مستعارا على بعض الألسنة، إما ألسنة الناطق أو الصامت، أو على الأغراض المختلفة الأجناس. و أكثر ما تُجعل على السنة الصبيان والنسوان والسكرارى والسكران"¹⁸¹. ومن الأمثلة على ذلك: خرجة عامية على لسان فتاة تشكو آلام الهوى، حيث يقول ابن شرف:¹⁸²

هكذا يا أمي نشقى والحبيب ساكن جواري

إن أمت يا قوم عشقا فخذوا أمي بثاري

وهناك من الخرجات العامية ما جاء على لسان الغرام كقول ابن بقي:¹⁸³

ومذ رحلت غنى الجوى في صدري

سافر حبيبي سحر و ما ودعتو يا وحش قلبي في الليل إذا افتكرتو

كما تردد الفعل العامي "اش" في الخرجات العامية، كنوع من اللوم أو ابداء الحسرة على حال ما، قد آل إليه الوشاح . وكثيرا ما كان يرتبط هذا الفعل بغرض الغزل، كما في قول الأعمى التطيلي:¹⁸⁴

واش كان دهاني يا قوم واش كان بلاني واش كان دعاني نبدل حبيبي بشان

وقد عرفت الخرجات العامية في عصر الموحدين اتساعا ملحوظا في الأغراض الشعرية، خاصة غرض المدح، وذلك لانعدام الكلفة بين المادح و الممدوح¹⁸⁵. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن زهر في خرجة موشح يمدح فيه الأمير الموحدى أبا حفص:¹⁸⁶

181 - المصدر السابق، ص: 41.

182 - لسان الدين بن الخطيب: "جيش التوشيح"، تحقيق هلال ناجي، تونس: مطبعة المنار، 1976، ص: 103.

183 - ابن سناء الملك: المصدر السابق، ص: 42.

184 - المصدر نفسه، ص: 110.

185 - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص 118.

186 - السيد غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 100.

أبو حفص هـ سلطاني الله يحرزولي
هـ آمني هـ أغناني هـ يبلغني سولي

وقد دخلت الخرجات العامية موشحات التصوف وبدا سلطانها واضحا كما في
خرجة للششتري يقول فيها:¹⁸⁷

عريان نريد نمشي أجل شي
كما مشى قبلي غيلان مي

الخرجة المعربة:

أجاز ابن سناء الملك الاعراب في لغة الخرجة، وذلك بأحد الشروط التالية:
- أن يكون غرض الموشح هو المدح، وأن يذكر اسم الممدوح فيها كقول ابن
بقي¹⁸⁸:

إنما يحى سليل الكرام واحد الدنيا ومعنى الأنام

- أن تكون لغة الخرجة المعربة "غزلة جدا، وألفاظها هزازة سحارة، بينها وبين
الصبابة قرابة"¹⁸⁹. وإن كان ابن سناء الملك، يشير إلى صعوبة توفر هذا الشرط،
وذلك حين يقول: "وهذا معجز معوز"¹⁹⁰.

- أن تستعار الخرجة من خرجة مشهورة لوشاح آخر، أو تتضمن بيت شعر لشاعر
معين. ويوضح ابن سناء الملك ذلك بقوله: "وفي المتأخرين من يعجز عن الخرجة
فيستعير خرجة غيره. وهو أصوب رأيا ممن لا يوفق في خرجته بأن يعربها ويتعاقل،
ولا يلحن فيتخافق بل يتثاقل"¹⁹¹. فالأقتباس على هذا المنوال أكدته ابن سناء
الملك، بل جعله أجدى و أنفع من أن يتحرى الوشاح الفصحى بتكلف غير مصيب.

¹⁸⁷ - المصدر السابق، ص: 358.

¹⁸⁸ - "دار الطراز"، ص: 41.

¹⁸⁹ - المصدر نفسه.

¹⁹⁰ - المصدر نفسه.

¹⁹¹ - المصدر نفسه، ص: 43-44.

ومن أمثلة استعارة الخرجة المعربة قول ابن بقي، وقد أخذ بيت ابن المعتز وجعله
خرجة لاحدى موشحاته¹⁹²:

علموني كيف أسلو وإلا فاحجبوا عن مقلتي الملاحا

وقول ابن زهر، و قد أخذ بيتا لأبي تمام:¹⁹³

نورهم ذا الذي أضأ أم مع الركب يوشع

فقد أخذها من قول أبي تمام:

فو الله ما أدري أحلام نائم ألت بنا أم كان في الركب يوشع؟¹⁹⁴

والواضح أن هذا الاقتباس قد يكون لفظيا وتلزم الحرفية فيه، كما يمكن للشاح
التصرف في بعضه والابقاء على البعض الآخر¹⁹⁵.

ومن الأمثلة الدالة على اقتباس خرجات الشاحين المعاصرين أو السابقين¹⁹⁶،
ما نجده عند ابن عربي إذ يقول في خرجة إحدى موشحاته¹⁹⁷:

بالله يا جنان اجن من البستان الياسمين

وخل الريحان بجرمة الرحمان للعاشقين

وهي مأخوذة من خرجة لابن بقي يقول فيها¹⁹⁸:

إذا جئت أرض سلا تلقاك بالكارم فتيان

هم سطور العلا و يوسف بن القاسم عنوان

192 - ابن سناء الملك: "دار الطراز"، ص: 103.

193 - السيد مصطفى غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 117.

194 - ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، القاهرة: دار المعارف، ط4، م2،
ص: 320.

195 - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات و الأرجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 124.

196 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 123.

197 - السيد مصطفى غازي: المصدر السابق، ص: 260.

198 - فوزي سعد عيسى: المصدر السابق، ص: 124.

وأورد ابن سناء الملك خرجة معربة جاءت على لسان الحمام يقول فيها عبادة
القزاز¹⁹⁹ :

إن الحمام في أيكها تشدو
قل هل علم أو هل عهد أو كان كالمعتصم والمعتضد ملكان
وللوشاح السابق خرجة معربة جاءت على لسان الهيجا يقول فيها²⁰⁰ :
فالهيجا تغني والسيف قد طرب
ما أملح العساكر وترتيب الصفوف والابطال تصيح الواثق يا مليح
وقد لاحظ ابن سناء الملك أن هذه الخرجات تسبقها أفعال مخصوصة، مثل :
"غنى"، و"شدا" و"قال"²⁰¹. ويوضح الدكتور إحسان عباس أن تلك الأفعال سبقت
الخرجة لأنها كاللحن الموسيقي تؤذن بختام الموشح . وقد جاءت تلك الأفعال دالة
على أنها (الخرجة) مما يغني في البيئة المحلية²⁰².
ومن أمثلة ذلك قول ابن زهر²⁰³ :

إذا لامني فيه

من رأى تجنيه

شدوت أغنيه:

لعل لها عذرا وأنت تلوم

وقد كثر ورود الخرجة المعربة في موشحات التصوف، كقول أبي الحسن
الششتري²⁰⁴ :

199 - ابن سناء الملك المصدر السابق ، ص: 42 .

200 - المصدر نفسه.

201 - ينظر: المصدر نفسه.

202 - ينظر: "الأدب الأندلسي، عصر الطوائف و المرابطين" ، ص: 238.

203 - ابن سناء الملك : دار الطراز ، ص: 61 .

يا منزل الوصال حيت منزلا
فما أنا بسال عنه وإن سالا

- الخرجة الأعجمية :

صاغ الوشاحون بعض خرجاتهم بألفاظ أعجمية، وكان ذلك نتيجة احتكاك العرب بالاسبان في مختلف الميادين . ولذلك أجاز المنظرون لهذا الفن استخدام الأعجمية في خرجات الموشحات . ولكن ذلك يباح بشروط . قال ابن سناء الملك :
"وقد تكون الخرجة عجمية اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضا في العجمي سفسافا نفطيا *
ورماديا زطيا **205 . وهذا طلبا للملحة واللهو، والانطلاق من جميع القيود 206 .
ومن الأمثلة على الخرجات الأعجمية قول عبادة القزاز في خرجة موشح له 207 :

ميو سيدي إبراهيم يا نوا من دلج فنت ميب ذي نخت
ان نن شنن كرش ارم تبب غرمي أوب لغرت
ومعناها 208 :

يا سيدي إبراهيم، يا صاحب الاسم العذب، أقبل إلي، في المساء
فإن لم ترد، جئت إليك. و لكن أين أجذك ؟ .

وهذا النوع من الخرجات نظم بلغة تفرعت عن اللاتينية، وكانت منتشرة في الأندلس، كما كان الوشاحون وغيرهم من الأندلسيين يعرفونها 209 .

204 - السيد غازي : "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2 ، ص: 358 .

* نفطي: نسبة إلى النفط، أي محرق. ينظر "دار الطراز"، ص 191.

** زطي : نسبة إلى الزط، وهم جيل من الهند. ينظر المرجع نفسه.

205 - المصدر السابق ، ص: 43 .

206 - ينظر : عمر فروخ : "تاريخ الأدب العربي" . ج4 ، ص: 435 .

207 - إحسان عباس : المرجع السابق : 238.

208 - المرجع نفسه.

209 - ينظر : مصطفى عوض الكريم : "الموشحات و الأزجال" ، ص: 17.

ويلاحظ بعض الباحثين أنه لا يعتمد في الخرجة الأعجمية إلى التكلف، بل تُنظم بتلقائية، و يتسم أسلوبها بالسهولة و الليونة²¹⁰.

وينبه الدكتور مصطفى عوض الكريم إلى أن الوشاحين المشاركة كانوا يجهلون هذه اللغة التي نُظمت بها الخرجات الأعجمية في الأندلس، ولذلك لم يجعلوا خرجاتهم أعجمية، ولم يستعبروا خرجات غيرهم أيضا²¹¹. على أن ابن سناء الملك ذهب مذهب الأندلسيين في استخدام اللغة الأعجمية في الخرجة، ولكنه اختار اللغة الفارسية التي كانت معروفة في بعض بلاد المشرق . ومن أمثلتها عنده قوله²¹² :

دانستي كي بوسه بمن داز دها انكسترين
أو از كواي دست من باش ببوسته مم شيين
و ترجمتها²¹³:

أتعرف من أعطاني القبله ؟ مازلت أتذكره
وهذا الذي أنعم علي بالقبله أحترمه

وإن كان الدكتور عباس الجراري يؤكد استخدام ابن سناء الملك لغة لم يعرفها سكان مصر، وذلك عكس اللغة الأعجمية التي نظمت بها خرجات الموشحات الأندلسية، والتي كانت مألوفة و متداولة بين جمهور أهل الأندلس²¹⁴.

وللدكتور إحسان عباس مجموعة من الملاحظات فيما يخص لغة الخرجة تدل على نظرة عميقة في هذا الفن، و فهم كبير لطبيعته، وإدراك واسع لخصائصه، نوردها على النحو الموالي، معلقين على بعضها :

²¹⁰ - ينظر: فوزي سعد عيسى: " الموشحات و الأزجال الأندلسية في عصر الموحدين " ، ص:327.

²¹¹ - ينظر: " الموشحات و الأزجال " ، ص:17.

²¹² - ابن سناء الملك : "دار الطرز" ، ص:183.

²¹³ - المصدر نفسه، ترجمة المحقق، ص: 183، ح1.

²¹⁴ - ينظر : عباس الجراري: "موشحات مغربية"، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ط1، 1973، ص: 97.

- يقول الدكتور إحسان عباس : " و قد استمد ابن سناء الملك كل أمثلته من عصر الطوائف والمرابطين، يوم كان الفنّان من غزل ومدح هما الغالبين على الموشحات . و أنا لست أنكر قيمة الخرجة في الموشح، ولكني أرى أن ابن سناء الملك حين وضع تلك التحديدات، كان مأخوذا بطبيعة النماذج الموجودة بين يديه. فهو يشترط أن تكون الخرجة عامية ثم يتنازل على كونها عامية في غير المدح" 215. على أن المثال السابق في خرجة ابن زهر، والتي يمدح فيها الأمير الموحي، يوضح ما ذهب إليه الدكتور إحسان عباس. كذلك الخرجة العامية للششتري التي جاءت في نص صوفي. فإذا اشترط ابن سناء الملك الحجاجية في اللغة العامية للخرجة، فكيف يناسب هذا مقام التصوف؟

- نظرا إلى هذه المفارقة رأى الدكتور إحسان عباس أن هناك قانونا خاصا كان يحكم لغة الخرجة، و هو قانون التناسب، أي موافقة الموشحة للمقام العام. فإذا كان غرض المدح، كان على الوشاح أن يراعي العلاقة التي تربطه بالممدوح، فإذا كان الجدل يسود بينهما، اختار الخرجة المعربة؛ أما إذا رُفعت الكلفة، كانت الخرجة العامية أولى²¹⁶.

- إذا تعلق غرض الموشح بالغزل الراقى، كانت اللغة الفصحى مناسبة لأن الحب شغوف بإرضاء محبوبه. ولذلك عليه أن يتحرى الخطاب السامي واللائق لذلك. أما إذا كان الموضوع التوشحي يتضمن اللهو، كانت العامية لغة الخرجة الأكثر تناسبا. أما اللغة الأعجمية، فتوجه خاصة إلى الجوّاري الأعجميات المتغزل بهن²¹⁷.

215 - "تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف و المرابطين"، ص: 237 .

216 - المرجع نفسه.

217 - المرجع نفسه.

و يذكر الدكتور إحسان عباس أن التغيير في لغة الخرجة دليل على ختام الموشحة و اكتمالها²¹⁸، حتى يكون التأثير أعمق، فيلفت الوشاح بذلك انتباه المتلقى و ينمي العملية التفكيرية عنده، ويجعلها أكثر حركية.

2- طبيعة النسيج

إذا كانت السهولة قد طبعت لغة الموشح بصفة عامة، فإن ذلك لا يعود إلى المعجم اللغوي فحسب، و لكن إلى النسيج كذلك.

فقد تميزت طبيعة النسيج في الموشحات الجيدة بعفوية وبساطة واضحتين، و لم يكتنفه أي تكلف. وهذا ما أشار إليه الوشاح الكبير ابن حزمون حين قال: "ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا عن التكلف"²¹⁹.

ولبيان طبيعة النسيج في الموشح، نقدم ثلاثة مواقف يمكن ترتيبها على النحو

الآتي:

موقف ابن بقي:

أورد ابن سعيد في "المقتطف": "أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كل واحد منهم قد نظم موشحة و تفنن فيها، و لما تقدم الأعمى التطيلي لإنشاد موشحته -ضاحك عن جمان- خرق ابن بقي موشحته و تبعه الباقر"²²⁰.

و يعلل الدكتور إحسان عباس رد فعل ابن بقي، بأن موشحة التطيلي السابقة الذكر تميزت بالعدوابة و السياق المسترسل دون تصنع، و عباراتها مستقلة و موجزة، توفي بالمعنى و توحى بالدلالة المتوخاة²²¹.

218 - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

219 - ابن سعيد الأندلسي: المقتطف من أزاهير الطرف، تقدم و تحقيق سيد حنفي حسنين، الهيئة العامة المصرية

للكتاب، بدون طبعة، ص: 261.

220 - المصدر نفسه، ص: 256.

221 - ينظر: "تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف و المرابطين"، ص: 243، 244.

موقف ابن تفلويت:

قام ابن تفلويت بشق ثيابه، وحلف بأن يسير مادحه، ابن باجة، على الذهب لما سمع إنشاده لموشحته التي مطلعها²²².

جرر الذيل أيما جرّ وصل السكر منك بالسكر

و التي ختمها بقوله:

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

وإثر ذلك صاح ابن تفلويت بقوله: "ما أحسن ما بدأت و ما ختمت!"²²³ و قد عقّب الدكتور إحسان عباس على موقف ابن تفلويت بقوله: "أما ابن تفلويت، فرمما زاد التلحين في طربه، و لكنه بيّن أنه شديد الابتهاج بحسن الفاتحة والختام لقوله لابن باجة: "ما أحسن ما بدأت و ما ختمت" فهو ينظر إلى الموشحة من حيث تأثيرها في نطاق معين"²²⁴. إذ أن ابن باجة أحكم عقد موشحته في بدايتها، وكذلك نهايتها؛ فقد قوى الوشاح نسج الموشحة ولم يترك أي بؤر ضعف، بحيث بدأ بقوة الوقع و انتهى به أيضا.

موقف ابن زهر:

أثارت موشحة لابن بقيّ، حسد ابن زهر. وهي التي يقول منها في الخرجة:²²⁵

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق

أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

²²² - ينظر: ابن سعيد: المقتطف، ص: 257.

²²³ - المصدر نفسه، ص: 257.

²²⁴ - "تاريخ الأدب الأندلسي، عصر ملوك الطوائف و المرابطين"، ص: 244.

²²⁵ - المرجع نفسه، ص: 242-243.

و يعلل الدكتور إحسان عباس ذلك بقدرته ابن بقي على نظم الخرجة بأسلوب
معرب، و سهل إلى حد تداخل العامية في سياقه²²⁶.

و يُستنتج مما سبق أن نسج الموشح تميز بالسمات التالية:

- الأسلوب سهل مسترسل، و عباراته مُوجزة دون إخلال بالمعنى وترجمة الفكرة.
- براعة الوشاحين في نظم المطالع و الخرجات.
- تميّزت خرجات الموشحات بالأناقة اللفظية، و ساهم الاتجاه الوجداني للوشاح في بناء نسجها بشكل يناسب الحاجة الغنائية التي تخصّص فيها الوشاح. وهذا كله ينعكس على الهندسة العامة للموشح. يقول الدكتور عمر فروخ: "التوشيح فن وجداني خالص، و فنّ يستند فوق ذلك إلى الموسيقى استناداً أساسياً. فإذا لم يكن الوشاح وجدانياً مطبوعاً و عارفاً بأصول الموسيقى، فإنّ الإجادة في الموشح لا تتفق له".²²⁷

و يتوخّى الوشاحون الوحدة في الأبيات بما يخلقونه من تلاحم و ترابط مثير بين أجزاء الأبيات، فلا نقرأ بيتاً إلا و نطلب المزيد²²⁸، كقول ابن سناء الملك من مُكفّر له:²²⁹

طائر قلبي وقعت في الأشرار وهو الهوى و النوى و ما أدراك

قد كنت عما عشقتها أهـاك أضنت و قالت: من الذي أضناك

و قد لاحظ الدكتور فوزي سعد عيسى أن الوشاح ينجح إلى أسلوب التقديم والتأخير بين الفعل و الفاعل أو المضاف والمضاف إليه، فيأتي بأحدهما في غصن ويأتي بالآخر بعد غصنين أو ثلاثة²³⁰، كما في قول ابن زهر:²³¹

²²⁶ - المرجع السابق، ص: 242-243

²²⁷ - "تاريخ الأدب العربي"، ج4، ص: 438

²²⁸ - ينظر: "الموشحات و الأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 129

²²⁹ - دار الطراز، ص: 120

²³⁰ - ينظر: فوزي سعد عيسى: "المرجع السابق"، ص: 128

على حين قد ألهاني عن قال و القيل

ليل الصد و الهجران و يوم الرحيل

حيث نرى الفعل "ألهى" في الغصن الأول و فاعله "ليل" في الغصن الثاني.
كما أكثر الوشاحون من الصنعة اللفظية مثل "الجناس" و "الطباق"، خاصة في بعض أجزاء الموشح²³²، كقول ابن سهل:²³³

فهو عندي عادل إن ظلما و عذولي نطقه كالخرس

ليس لي في الأمر حكم بعدما حل من نفسي محل النفس

غير أن نسج الموشح اللغوي يميل أحيانا إلى استخدام الكلام العامي. و قد حرص الوشاحون المقتدرون على تحقيق ذلك في موشحاتهم، كالتطيلي وابن زهر. واتخذ بعض النقاد من ذلك معيارا للحكم على لغة الموشح. و قد لاحظ الدكتور إحسان عباس ذلك فقال: "الإسكان بالوقف في التجزئات القصيرة، واختيار الألفاظ التي لا تظهر حركات الإعراب في أواخرها، هما أمران يجعلان العلاقة الإعرابية ضعيفة، ويحيلان الموشح إلى المستوى قريب من الكلام الدارج"²³⁴. ويظهر هذا في قول عبادة القزاز:

ما أتم ما أوضحا ما أوقا ما أم

لا جرم من لحا قد عشقا قد حرم²³⁵

و كثيرا ما يؤدي هذا إلى عدم الاستقلالية بين الأجزاء، فتُجعل عبارات الموشح أقرب إلى النثر منها إلى الشعر²³⁶، رغم وجود علامات الوقف، كما في قول ابن بَقِيٍّ:²³⁷

231 - السيد غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 260

232 - ينظر: فوزي سعد عيسى: "المرجع السابق"، ص: 131

233 - السيد غازي: "المصدر السابق"، ص: 183

234 - "تاريخ الأدب الأندلسي، عصر ملوك الطوائف و المرابطين"، ص: 244

235 - ابن سناء الملك: "دار الطراز"، ص: 89

أنت المليك الرئيس أنت العقد النفيس

الواهب الجياد الحاليات السروج مع أبناء العلوج

مع هذا الخروج عن قواعد الشعر يسمح الوشاحون لأنفسهم بتجاوز القواعد الإعرابية. لذلك نجد الدكتور يوسف عيد يقول: "وغالبا ما تذهب السهولة بأصحابها إلى التعمية و الركافة، و الخروج على قواعد اللغة و أصولها. قال أحدهم:

يا ظالمي حقا يكفيك ما ألقى

أفيتي عشقا

بمرهفي عيناك أما كفاك؟

و من لا يدرك أن الصواب "عينيك" لا "عيناك"، فالمفروض أن تكون اللفظة مجرورة (مضاف إليه). وقد استسهل الوشاح الخطأ ليحافظ على القاعدة"²³⁸ هذه التجاوزات التي كان الوشاح يأتيها، تكون أدنى إلى ضرائر الشعر التي ينصرف الناظمون إليها حتى يقيموا الميزان الشعري، ويدعموا روعة الإيقاع وسلامته.

طبيعة التصوير:

لا يمكن لأي عمل أدبي أن يحقق وظيفته الفنية و الجمالية دون عنصر التصوير. و إلا كان مجرد خطاب علمي يخضع للآلية دون أية حيوية شعورية. فالعمل الأدبي كان و مازال، وليد العقل والعاطفة، و منتقياها اللغوية. لذلك اتسع الحديث عن الصورة الأدبية قديما و حديثا، و إن بدا الاختلاف واضحا في بعض المواطن. إلا أن الاتفاق تم حول أهمية الصورة الأدبية في تفعيل العمل الأدبي و تعميق أثره بإبعاده عن العبارات التقريرية المباشرة.

²³⁶ - ينظر: إحسان عباس: تاريخ الأدب الاندلسي: "عصر الطوائف و المرابطين"، ص: 245

²³⁷ - ابن سناء الملك: المصدر السابق، ص: 114

²³⁸ - "التو شيخ في الموشحات الاندلسية"، ص: 19-20

ويرى عبد القاهر الجرجاني: "أن الكلام، كما هو شريف في جوهره، كالذهب الإبريز، الذي تختلف عليه الصور، و تتعاقب عليه الصناعات. و جل المعول في شرفه على ذاته، و إن كان التصوير قد يزيد في قيمته و يرفع قدره"²³⁹.

و إذا كان للصورة الأدبية هذه الأهمية، فإن الدكتور جابر عصفور يوضح أن نجاح الصورة أو فشلها متعلق بتكاملها مع العناصر الأخرى المكونة للعمل الأدبي، لأنها وسيلة إدراك المعاني الجديدة. و هي لا تغير ذاتية المعاني، لكنها تحوّر طريقة تقديمها، بحيث تتخلّص تجارب الأديب و تتسرّب ضمن نفق التصوير الذي بدونه يفقد العمل الأدبي كثيرا من مقوماته²⁴⁰.

إن وظائف الصورة الأدبية تتنوّع بين شرح المعنى وتوضيحه، بحيث تتخذ المبالغة في التحسين والتقبيح، كأداة للإقناع، فيستحيل الغائب حاضرا. ويظهر هذا خاصة في الأسلوب القرآني الذي يهدف إلى الترغيب أو الترهيب. وهذه الوظائف مجتمعة قام علم البيان على إرساء قواعدها بما يحويه من تشبيهات و استعارات و كنايةات تساعد الحواس على تشكيل صورة ذات أبعاد فنية²⁴¹.

و إذا كانت الموشحات جزءا من الأدب، فإن طبيعة التصوير في الموشح اتخذت ملامح خاصة يمكن استكشافها على النحو الآتي:

لم يألّف الوشاحون الغوص في عمق المعاني واستخراج الدرر الكامنة، بل ركبوا السهولة واللين. وهذا ما زاد الجمال اللغوي أهمة وساعد على ذلك روعة التشبيهات، و رنة القافية وجرس الألفاظ.

ويرى الدكتور يوسف عيد أن "الموشحات التي وُضعت أصلا للغناء، هي بأساليبها مبتدعة غير منقولة، ألبسها الوشاحون من نسج أخيلتهم وحبك صناعتهم

²³⁹ - "أسرار البلاغة" بيروت: دار المعرفة، ط2، ص: 19

²⁴⁰ - ينظر: "الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي"، ص: 462، 492

²⁴¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 462، 492، رجاء عيد: "لغة الشعر: قراءة في الشعر العربي الحديث"،

الإسكندرية، منشأة المعارف، بدون طبعة، ص: 9

أثوابا خاصة بها، و عمدوا إلى جعلها موافقة للفن الغنائي الذي يحسن أن يكون سهلا بعيدا عن التعقيد و الغموض²⁴²

و قد تحرّى الوشاحون الابتكار في الصور الفنية، واعتنوا بذلك، فكانت الأخيعة المستغربة، حيث تضرب الدهشة بظلالها عند الاستماع إلى نظم وشاح كابن سهل فترى تعدد الصور المنبعثة من صورة كبرى رسمها²⁴³ في قوله:²⁴⁴

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر و خفق مثلها لعبت ريح الصبا بالقبس

فهو يشبه خفقان القلب واضطراب دقاته، لأمر حل به، بنور القبس الذي تتلاعب به الرياح، فتظهره مرة وتخفيه مرة أخرى. وقد وُفق ابن سهل في تحديد ظروف تشبيه بإعطائه بعدا حقيقيا ومؤثرا.²⁴⁵

و تزداد عملية التصوير تبلورا عند ابن سهل عندما يقول.²⁴⁶

و إذا أشكوه وجدي بسما كالربي بالعارض المنبجس
إذ يُقيم القطر فيها مأتا و هي، من بهجتها، في عرس

فنحن نجد ابن سهل يعدّد الجزئيات، ويقابل بين المتناقضات، من بكاء وحزن بالابتسام و الفرح. وهو يصف حاله السيئ، ومحبوه في سلوة لا يعيره انتباها. و نرى أن ابن سهل جعل الطبيعة مرتعا لصوره وسيلا لانتقاء معانيه. و هذا حال جل الوشاحين الذين أثرت فيهم طبيعة الأندلس، فجعلوها مصدرا لصورهم وأخيلتهم²⁴⁷.

²⁴² - "التوشيح في الموشحات الأندلسية"، ص: 19

²⁴³ - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات و الأرجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 133

²⁴⁴ - السيد مصطفى غازي: ديوان الموشحات الأندلسية، م2، ص: 182

²⁴⁵ - ينظر: فوزي سعد عيسى: المرجع السابق، ص: 133

²⁴⁶ - السيد مصطفى غازي: المصدر السابق، ص: 183

²⁴⁷ - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات و الأرجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 134

و يلاحظ الدكتور فوزي سعد عيسى أن التشبيه أكثر الصور البيانية استخداماً عند الوشاحين، خاصة في أخذ صور حية وربطها بصور الأحوال و النفوس. وغالبا ما يرى حشد كبير لهذه التشبيهات في موشحة واحدة²⁴⁸، كقول ابن حنون²⁴⁹:

كالغصن النضير في قوام كالبدر المنير في الكمال
يروءك، و هو ذو ارتياح كالليث الهصور، كالغزال

وتميزت الصورة الأدبية في الموشحات بالسهولة في التركيب. و عمد الوشاح بواسطتها إلى تقريب المعنى و توضيحه دون تعقيد، خاصة وأن هذا الفن يمس الطبقة العامة من المجتمع. فمن غير المعقول أن تُخاطب هذه الطبقة بصورة متأنقة تحفل بها بلاطات الحكام و مجالس الأدباء. وقد عمل الوشاحون على تأدية التصوير بشكل يوافق البيئة التي تحيط بهم، فأتوا بصور الفروسية وطوعوها في أغراضهم التوشيفية، خاصة الغزل منها²⁵⁰، كقول ابن شرف الذي رسم محبوبته كمهر يأبى القيد وينشد الحرية :

ظلت على هجري ثباح خلد الجنان
كالمهر يعشق المراح تحت العنان

وقد عمل الوشاحون على تطبيع الصور القبيحة و استخدامها في أغراض فنية كصور الحروب، التي أصبحت ميدانا للغزل، حيث توصف الحبيبة بأوصاف المقاتل العنيد، إذ أدمت القلوب بمقتليها²⁵¹، كقول ابن المريي²⁵²:

²⁴⁸ - ينظر : المرجع السابق، ص: 135 .

²⁴⁹ - السيد مصطفى غازي : ديوان الموشحات الأندلسية ، م 2 ، ص: 156 .

²⁵⁰ - ينظر: فوزي سعد عيسى: المرجع السابق، ص: 135.

²⁵¹ - السيد مصطفى غازي: " ديوان الموشحات الأندلسية"، م 2، ص: 29.

²⁵² - ينظر: فوزي سعد عيسى: المرجع السابق، ص: 136.

فكم لها من قتيل بسحر أجفان

ومثخن من جراح رهين أحزان²⁵³

كما وظّف الوشاحون الصورة في نقل معالم البيئة الأجنبية، فأخذوا بعض السمات والخصائص المسيحية، ووضعوها في قلبهم التوشيعي²⁵⁴، كقول ابن سهل الذي استعمل فكرة التثليث في غزله²⁵⁵:

يدين فيه البصر بدين عباد الصليب

إذا ثلث بالقمر والحقف والغصن الرطيب

ويرى الدكتور يوسف عيد أن الصورة في الموشحات منقطعة لا تؤدي وظيفة جمع الأفكار، و لا تسمو إلى غرض مثالي. لكن بطريقة التشبيه ورنه القافية ساهم التصوير في تعزيز الغرض الفني²⁵⁶، نجد مثلاً قول ابن عتبة²⁵⁷:

على غناء الحمام والكأس ذات ابتسام

و الظلام قتيل والصبح دامي الحسام

فقد منح ابن عتبة للصورة ملمحاً عاماً، يتكون من عدة لقطات تُشاهد في لحظة متزامنة، فلا نكاد نقدم أو نؤخر حتى يتمثل لدينا المعنى نفسه "فالتبديل هنا لا يُعدّ" "تقديمًا" و لا "تأخيرًا"، لان التقديم والتأخير يفترضان التتابع و التسلسل الزمني. وهو أمر لا يستدعيه مكان الإلهام الشعري الأفقي لدى الشاعر العربي بل إن المشهد الواحد يتكون من مجموعة متجاورة من الصور التي تستقل بفعل القافية"²⁵⁸.

253 - السيد غازي: "ديوان الموشحات الأندلسية"، م2، ص: 165.

254 - ينظر: فوزي سعد عيسى: "الموشحات و الأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، ص: 135.

255 - السيد غازي: المصدر السابق، ص: 229.

256 - ينظر: "التوشيع في الموشحات الاندلسية"، ص: 19.

257 - السيد غازي: "المصدر السابق"، ص: 154.

258 - ريتا عوض: "البنية الصورية في الشعر الجاهلي"، مجلة العربي، العدد 551، أكتوبر 2004

وقد طُبعت الصورة الأدبية في الموشح بنوع من التداخل الموضوعي الذي تميز به اختيار الوشاح للأغراض الشعرية، بحيث نجد وصف مجالس الشراب يمتزج بوصف الطبيعة وسحر جمالها في إطار الغزل.

و يؤكد الدكتور فوزي سعد عيسى حقيقة أخرى هي أن الوشاحين اهتموا بالتصوير، فجمعوا فيه بين الطرافة التي يوجبها ميل العصر، والبساطة التي توافق الغناء، وتأثروا بملامح الطبيعة، فرسموا كل ذلك بخيال واضح ولغة عذبة ميزتها الصبغة العروضية المتنوعة²⁵⁹.

وهذا يقودنا إلى القول بأن الوشاحين راعوا كثيرا الصور الأدبية حتى أصبحت عند بعضهم غاية لا وسيلة و حسب. إذ أن الموشح فن أدبي، و من غير المعقول أن يخلو فن أدبي استحدث تغيرات ملموسة على مستوى الوزن والقافية، من أن يحدث مثل ذلك على مستوى التصوير، وهو المعروف بصلته بمظاهر الجمال والزينة. وحيثما وُجد الجمال توفر استثمار الخيال. ولهذا لا نبالغ إذا قررنا أن الموشحة بناء صوري متعدد يعمل على جلاء الأحاسيس و توضيح التجربة الشعرية لأي وشاح. و هكذا أثبت الموشح، وبوضوح، طبيعته المتميزة التي اختلفت كثيرا عن طبيعة الفنون الأدبية الأخرى.

فأجزأوه وطريقة بنائها دليل ناصع، بل قاطع، على هذه الطبيعة. وإذا كان بعض الدارسين قد حطّوا من قيمته، فإن ذلك راجع إلى نظرهم المقارنة، حيث جعلوا الموشح مقابلا بالشعر المقصّد، فأثبتوا بذلك ابتذاله وضعفه اللغوي وكذا التركيبي.

وكان عليهم أن يلتفتوا إلى تلك الخصوصية التي تجعل من البحث والدراسة في الموشح، خطوات مغايرة، غير تلك المتبعة في الشعر القديم. فقد كانوا بمثابة شرطي

²⁵⁹ - ينظر: "الموشحات و الأزجال الاندلسية في عصر الموحدين"، ص: 136.

طغت عليه التزعة العسكرية، فرأى كل شيء أمامه بمنظار الصرامة والاستقامة، وكل ما خرج عن هذه الدائرة كان ضد القانون العام. وكذلك كان الموشح عندهم. إن الموشح إبداع له ظروف معيّنة، على الباحثين أن يأخذوها بعين الاعتبار، ويرسخوها في إطارهم التنظيري والنقدي. وإن كان الموشح قد ملك من الخصائص الفنية والجمالية ما جعل عملية انتشاره سريعة. فكان تأثيره كبيرا في الجماهير، ومن بعدهم في جموع الدارسين القدامى والمحدثين، على حد سواء.

الفصل الثالث

وظيفة الموشح و تطوره

أولاً: وظيفة الموشح

1- الوظيفة الأدبية

2- الوظيفة الموسيقية

ثانياً: تطور الموشح

أولاً: وظيفة الموشح

يؤدي الأدب باعتباره نشاطاً فكرياً إنسانياً رسالة سامية وذلك ضمن إطار فني متكامل. ولا يمكن تسمية الأدب أدباً دون وظيفة معينة يعمل من أجل تجسيدها. فكيف تمثلت هذه الوظيفة؟ وإلى أي مدى نجح الوشاحون في تحقيقها؟

1- الوظيفة الأدبية:

استطاع الموشح تحقيق وظيفة أدبية، ظهرت نتائجها على الوشاح الذي تمكن من تمثيل تجربته الشعورية داخل قالب فني متميز، ولبت حاجة المتلقي إلى فن جديد، كما خدمت البيئة المحيطة بجمهور الوشاحين.

فقد فتح الموشح أمام المبدعين باب التجديد بعد أن سيطرت القصيدة على الساحة الأدبية لفترة زمنية طويلة. والجدّة عنصر مهم في تطور الفنون واستثمار المواهب، بغية استمرار الموروث الفني وعدم جموده. هذا ما حدث مع الموشح الذي بعث حياة منتعشة تدفقت لأجلها دماء الأدباء، وتحركت قرائحهم لينتجوا فناً راقياً. "فقد استجاب شعراء الموشحات لحاجات عصرهم، وعبروا عن خلجات نفوسهم، فلم تعد قصائدهم خاضعة لنظام القصيدة العربية: من البكاء على الأطلال، وذكر المحبوبة، ثم الانتقال إلى المديح وغير ذلك"¹.

فالموشح غير الطريقة النمطية التي سار عليها شعراء الأندلس في محاكاة شعر المشاركة، فتيسر للأندلس، بظهور الموشح، أن تفتخر بالجديد الذي يُحسب لها على مر الأزمنة. ولم يكن ذلك ليتجسد لولا الاستحداث الفني الذي قام به الوشاحون. وأهم ما حققه الموشح هو تطوير عنصر الشكل؛ فقد كسر الصورة الثابتة للقصيدة العربية المتوازية الخطوط، ونسج نظاماً جديداً مبنيّاً على رسم الوشاح الذي

¹ - محمد سعيد محمد: "دراسات في الأدب الأندلسي" ص 277.

تنزين به المرأة، وأضفى نوعاً من الموسيقى العذبة، التي بدأت تضعف نغماتها، على جو النظام، بما خلقه الوشاحون من تنوع عروضي، إضافة إلى كثرة تنوع القوافي. أما على مستوى الموضوع، فقد أخرج الموشح الشعر من دائرة التأمل التي أحكمت قيودها على تفكير المشاركة، حتى أبعدتهم عن بيئتهم، وهي المنهل الأول لأي أدب، فقد صور الوشاح الأندلسي ظروف مجتمعه الحضاري الذي تمتاز فيه الأجناس، وتتضارب فيه المستويات الثقافية. ولقد ابتعد الأندلسيون عن الشعر القريض لما فيه من ثقل على مستوى المعنى والبناء، إذ يسير على شاكلة واحدة تثير الملل، وهو مبطن بألفاظ عسيرة الفهم. فمثل هذا الشعر لا يحقق الملاءمة بين حياة الأندلسيين السهلة التي تغمرها جماليات الطبيعة: من مياه، وخضرة، ومجالس شراب وهو وموسيقى، وبين الاختلاف الألسني لدى طبقات المجتمع الأندلسي.

لقد سيطر الطابع البدوي الصحراوي على تفكير المشاركة، وجعلهم في تنافر مستمر مع بيئتهم فكثرت أشعار التمرد، كأشعار الصعاليك، وخمريات أبي نواس، ولزوميات المعري، الذي أبعد الشعر عن غنائيه، وألبسه ثوب الفلسفة. لذلك برز الشاعر فردا وحيدا، "ولم ينقل الصورة المباشرة لذلك الواقع وشروطه، وهي ظروف وشروط تاريخية وحضارية بالضرورة، تلعب دورا حاسما في تحديد الشكل الفني لهذا الشعر ومضمونه"²، فقسوة الطبيعة أدت إلى قسوة قيود الأدب وتعقيد لغته.

وتتميز لغة أهل الأندلس بابتعادها عن الإعراب، كما يوضح ذلك ابن خلدون بقوله: "ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك، وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم. هذا ماعدا حركات الإعراب واجتهادها وتأويلها في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر، وتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الأعراب"³. وهذا الطابع العام للغة أهل الأندلس مكن

² - ريتا عوض: "البنية الصورية في الشعر الجاهلي"، ص 110.

³ - "المقدمة"، ص: 583.

الوشاح من اختيار اللغة الملائمة له، فتحقق الصدق الفني في الموشح، بتعبيره عن واقع حياة الأندلسيين أكثر مما تحقق في القصائد⁴، وذلك بلغة سهلة مفهومة، ومناسبة للأذواق.

وهذا ما يفسر انتشار غرض الوصف بين الوشاحين، فالوشاح الأندلسي وصاف في غزله، وفي مدحه، وكذا في رثائه وزهده، وذلك لارتباطه العميق بمجتمعه وانغماسه داخل مختلف أحواله. فاهتمام الوشاحين بما تراه أعينهم، وبما يعتور أنفسهم من عواطف تجلى بشكل بارز في موشحاتهم.

وإذا بُني جسم الموشح باللغة الفصحى، فإن الخرجة تم استخدام العامية فيها أحيانا، وذلك تبعا لمقام التناسب الذي بينه الدكتور إحسان عباس. وكان هذا الاختيار موافقا للغة أفراد المجتمع الأندلسي الذين اعتبرت لغتهم لغة وسطى، أي بين الفصحى والعامية. ذلك أن تجانس الأعراق البشرية من العجم والبربر واليهود، لم يتم إلا داخل بوتقة الإسلام، ولم يكن هؤلاء الأقوام قادرين على استيعاب لغة القصيد وهم حديثو المعرفة بأدب المسلمين، فوفر لهم الموشح لغة سهلة معبرة عن تجاربهم بصفة مألوفة.

ولقد ذكر الدكتور أحمد أمين: "أن استعمال الكلمات العامية في الأدب، لما فيها من الألفة والاعتیاد، قد يكون له تأثير. وكل أسلوب غرضه التأثير، في القارئ، له ميل إلى قبول العامية، لأنها سريعة الفهم ومتداولة. والكاتب الذي يتشوف إلى أن يؤثر في قارئه يهمله أن تكون كلماته مألوفة. والكلمات في تطور مستمر؛ فكثير من الكلمات العامية تصبح بمرور الزمن كلمات صحيحة جديدة بالاستعمال في الأسلوب الأدبي. وليس هناك قاعدة عملية عامة، توضع كمرشد في مثل هذه المسائل، إلا مهارة الأديب ولياقته"⁵.

⁴ - مصطفى عوض الكريم: "الموشحات والأزجال"، ص 25.

⁵ - "الموسوعة الأدبية"، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 4، ج 1، ص 122-123.

كما أن هذا الاستعمال العامي للوشاحين ساهم في خلق أدب شعبي متميز وهو: فنّ الزجل. على أن الوشاحين استعملوا العامية دون أن يهجروا الفصحى، فتميزت لغتهم بالوسطية الملائمة للعامية.

ولقد تميز الموشح بشراء موضوعاته وتنوع قوافيه، وخفة أوزانه. وهذا كله جعل الخلفاء والأمراء يطلبونه ويلحون عليه. ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الحياة داخل القصور وما تنطوي عليه من ترف وهو، وكذا هروبهم من مشاغل الحكم وكثرة المشاكل، سواء الداخلية أو الخارجية، فلم يجدوا ملجأ في الأدب، كعنصر للتسلية، إلا الموشح الذي كفّل لهم الراحة النفسية، والجدة في الحركة العاطفية.

لذلك كثير المتكسبون من الوشاحين، حتى قيل إن الوشاح ابن بقي "وقف بالبلاد على كل باب" ⁶. ويذكر الدكتور إحسان عباس " أن التكسب بالموشح اشتهر به غالبية الوشاحين الكبار، كابن القزاز، وابن اللبانة. لذلك كان أهم موضوع في الموشحات التي وصلتنا هو المدح " ⁷.

ويمكن القول بأن حرية الوشاح في اختيار اللغة المناسبة وافق حرية الفرد داخل مجتمعه، خاصة في ظهور بعض العادات الغريبة عن المجتمع الشرقي ⁸، ككثرة الشاعرات، وتصريح المرأة بحبها دون حياء ⁹. وهذا كله نقله غزل الوشاحين المتسم بالصورة البالغة التأثير والمعبرة عن حال المحبين.

كما ساعد الموشح في خدمة حرية العقيدة. وهذا أدى إلى التسامح الذي عُرف به الأمراء والخلفاء الأندلسيون، حيث تركوا للسكان المحليين - وكان منهم النصارى واليهود - حرية عقيدتهم. بل إنهم وظفّوهم في مناصب راقية داخل الدولة.

⁶ - إحسان عباس: المرجع السابق، ص 233.

⁷ - المرجع نفسه، ص 234.

⁸ - ينظر: سلمى الحفار الكزيري: " الأندلسيون يعيشون "، مجلة العربي، العدد 547، جوان 2004، ص 59.

⁹ - ينظر: حكمت علي الأوسي: " فصول في الأدب الأندلسي " ص 174.

وهذا التوجه السياسي سمح بوجود أدب منطلق من جميع القيود الداخلية (الشكل)،
والخارجية (الظروف).

وقد برز وشاحون كبار من غير المسلمين، أمثال ابن سهل الإسرائيلي الذي
ظهرت موهبته في الموشح، وساهم التوشيح في علو شأنه، فعرفت موشحاته بالأناقة
والظرف، وهي من سمات الموشح الرئيسية، كما جعل سهولة الألفاظ من اختياراته
لأنها تناسب اللغة التي غلبت على المجتمع الأندلسي. لذلك كانت طريقة التوشيح
مناسبة لعموم الناظمين، فحقق الموشح بذلك عنصر التأثير في نفوس المتلقين، ولاءم
المتذوقين الذين وجدوا ضالتهم الأدبية فيه ¹⁰.

لقد أدى الموشح وظيفة أدبية بارزة، إذ خدم الذوق الفني الجديد، وساهم في
بلورة أفكار الوشاحين بصورة سهلة دون تكلف.

وكانت الحرية الفنية التي تمتع بها الوشاحون حافزا للمبدعين في هذا الفن إلى
الغوص وراء المعاني وإخراج السهل منها، والكشف عن نغمات جديدة، وذلك
حسب جرأة الوشاح. فبرز التفاوت بين وشاح وآخر، تبعا لحذق كل واحد وبراعته
في تطويع القطع التوشيفية لصالح موضوعات بعيدة عن الغنائية التي يكفلها الموشح،
كالرثاء، ووصف المباني والسفن، والزهد والتصوف، وغيرها من المواضيع التي
تقتضي الجدية في التعبير. لكن الموشح تبني عواطف الوشاحين بنوع من السهولة
المقبولة دون إسراف، فمنح النفس راحة وانطلاقا من قيود القافية والبحث عن
الألفاظ المتأنقة والصعبة والتزام بحر واحد قد لا يوافق اضطراب المشاعر.

وبهذا يكون الموشح قد لبّى حاجة الناس عامة "وقدم صورة حية عن حياة
الأندلسيين بما فيها من القوة والضعف والرقى والتدهور" ¹¹.

¹⁰ - ينظر: مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص 78.

¹¹ - عمر الدقاق: "ملامح الشعر الأندلسي"، ص 349.

وقد وجد المشاركة في الموشح ما لى كثيرا من حاجاتهم حيث رسم الموشح للأدب المشرقي خطأ جديدا، واعم بعض الميول الشغوفة بالأذواق الفنية الراقية التي تثير الإعجاب بكل سهولة ودون تغنت، أو عسر فهم. فقد وطد التوشيح معالم توجه جديد على ما ألفته الأذن المشرقية وتعودت عليه العواطف الأدبية، فحمل الموشح بذلك للمشاركة ملمحا فنيا ذا ذوق رفيع بعيد عن الإسفاف والركاكة. وها هو ابن سناء الملك يذكر هذا الاحتواء الذي حققه الموشح بالنسبة إلى عواطف الشعراء فيقول: " وكنت في طليعة العمر وفي رجيل السن، قد همت بها عشقا، وشُغفت بها حبا، وصاحبته سماعا، وعاشرتها حفظا، وأحطت بها علما، واستخرجت خباياها، واستطلعت خفاياها، وقلبت ظهورها وبطونها، وعانقت أبكارها وعونها " ¹².

وهذا يبين مدى نجاح الموشح في إرساء دعائم ثقافة جديدة، انطلقت من الأصل دون أن تغير قواعده، وسمح للشعراء المشاركة بالإفلات من قيود القديم المقصّد، كما ملأ فجوة سلامة الذوق. فلا ينكر فضل الموشح في صقل المواهب وتحسين الإبداعات الشعرية إلا جاهل، كما أن الموشح لامس الأفتدة بغنائيته، وخصب العقول والأخيلة بفسيفسائه اللفظية، وتنوع عروضه، فوافق الأهواء وجدد الانتماء الفني لدى الشعراء الذين خففوا من وطأة القصيد وجنحوا إلى السهل الممتع. ولم يكن لهم أن يتزلوا من درجة القديم العالية، لو لم يتيقنوا من فائدة الجديد ورقية.

وقد قدم الموشح مساهمة كبيرة لشعراء " التروبادرو "، فساعدتهم موضوعاته المنتقاة على التعبير عن عواطفهم، خاصة الغزلية منها ضمن مقطوعات توشيفية،

¹² - "دار الطراز"، ص 30.

خفيفة الإيقاع، رنانة الجرس الموسيقي، فكان الموشح لهم مطية لنشر أفكارهم¹³،
وتوصيل غاياتهم الفنية.

ولم يؤد الموشح وظيفة ظرفية، بل استمر ذلك إلى العصر الحديث، حيث برز شعراء كثيرون وجدوا في الموشح متنفسا جديدا، وجسرا متينا يعبرون عليه إلى الجهة الأخرى من الإبداع الأدبي المناسب للزمان والمكان الذي بدأت ملامحه تتغير. فنحن نجد شوقي مثلا يستخدمه ليعبر عن إعجابه بشخصية "صقر قريش" عبد الرحمن الداخل، فيقول من موشح له:¹⁴

كنت صقرا قرشيا علما	ما على الصقر إذا لم يرمس
إن تسل أين قبور العظما	فعلى الأفواه أو في الأنفس
كم قبور زينت جيد الثرى	ميته أنجس من ميت الجوس
كان من فيها وإن جازوا الثرا	قبل موت الجسم أموات النفوس
وعظام تتزكى عنبرا	من ثراء صرن أعفال الرموس
فاتخذ قبرك من ذكر فما	تب من محموده لا يطمس
هبك من حرص سكنت الهرما	أين بانيه المنيع الملمس

والموشح قد لاءم النفوس المشتاقة إلى الأوطان فحررها من عواطف مكبوتة داخل الأفئدة وساعدها على إخراجها والتطهر منها بما له من ليونة لفظية وحرية عروضية وتداع حرّ يريح النفوس العليلة. وهذا ما وجده الشاعر الرومانسي الحديث، حيث افرغ عواطفه وأحاسيسه المتضاربة في قوالب توشيحية، فتحت له زاوية جديدة ليعبر عما يختزن في صدره من آلام وأحزان كثيرة، وهو في المهجر، بعيد عن وطنه وأهله وخاصة إن كان هذا الوطن يعاني الويلات، ولدينا هنا إيليا أبو

¹³ - ينظر: عبد الإله ميسوم: "تأثير الموشحات في التروبادور" ص: 157.

¹⁴ - "الشوقيات"، بيروت، دار الكتاب العربي، (د.ط.)، م2، ص171.

ماضي يصور حاله المتردي في موشح عنوانه "متى يذكر الوطن النوم؟"، متسائلا عن موعد الراحة الأبدية، والسعادة الخالدة التي يحتاج إليها وطنه، فيقول¹⁵:

جلست و قد هجع الغافلون	أفكر في أمسنا والغد
وكيف استبدبنا الظالمون	وجاروا على الشيخ و الأمرد
فخلت اللواعج بين الجفون	وأن جهنم في مرقدي
وضاق الفؤاد بما يكتنم	فأرسلت العين مدرارها
ذكرت الحروب و ويلاتها	وما صنع السيف و المدفع
وكيف تجور على ذاتها	شعوب لها الرتبة الأرفع
وتخضب بالدم راياتها	وكانت تذم الذي يصنع
فباتت بما شيدت تهدم	صروح العلوم وأسرارها

ولفت الموشح بتجديداته الشكلية، انتباه الشعراء المعاصرين، فنجحوا في إظهار ما يُسمّى "بالشعر الحر" أو "شعر التفعيلة"، فكان تفنن الوشاحين في تنويع القوافي وتنويع الوزن العروضي وسيلة ذلت صعوبة خرق قوانين الشعر المقصد على شعراء معاصرين أمثال: بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة وغيرهما من الشعراء الذين وافقهم الانفتاح الأدبي الذي حمله الوشاحون¹⁶.

فالמושح قاد ثورة التجديد مبكرا ودفع عناء ذلك عن الشعراء المحدثين، فمهد لهم الطريق حتى يبعثوا لنا حركة استحداثية كبيرة داخل الساحة الشعرية والأدبية بصفة عامة. على أن سهولة التراكيب، وسلامة الأسلوب دون تكلف، وإدخال الكلمات العامية لم يحتكرها الشعر بل تجاوزته إلى النثر، وذلك فيما ألفه الروائيون والقصاصون الذين اتخذوا المضمون غاية دون الالتفات إلى المعجم اللغوي، فكانت البساطة طريقتهم، وثرأ المعاني وتنوع المواضيع وسيلتهم لخدمة مجتمعهم الصغير

¹⁵ - "ديوان إيليا أبو ماضي"، بيروت: دار العودة، (د. ط.)، ص: 274.

¹⁶ - ينظر: حكمت علي الأوسي، "فصول في الأدب الأندلسي"، ص 171.

والكبير، خاصة وان أحوال الناس لم تعد بحاجة إلى أدب الصالونات، بما فيه من ديباجة الحبك وقوة الفكرة، بل أصبح همهم هو الإفصاح عن مكنونات نفس الفرد البسيط بسلاسة، وسلامة تبليغ، وموافقة لواقعية الموضوع.

2- الوظيفة الموسيقية:

تطورت الموسيقى في الأندلس تطورا ملحوظا، فكثرت الملحنون والمغنون. وقد ساعد على ذلك عدة عوامل، منها تشجيع الحكام الأندلسيين للموسيقى والغناء فقد جلبوا القيان وأغدقوا الأموال على الملحنين والمغنيين. ومن تلك العوامل ترف القصور وغلو الأمراء وغيرهم في مظاهر الأبهة والزينة. هذا إلى جانب الطبيعة الأندلسية الجميلة.

وقد ساهم ذلك في تقوية عنصر الغنائية وإثراء الألحان بإيقاعات متنوعة تلبى طلب المتلقين.

وقد تخرج ملحنون كبار على يد الفيلسوف ابن باجة الذي ذاع صيته في ميدان الموسيقى. ومن أشهر تلاميذه في هذا الميدان أبو عامر أحمد بن الحمارة الغرناطي الذي كان بارعا في علم الألحان: ينظم الشعر ويلحنه ويغنيه¹⁷.

على أن الذي دفع عجلة تطور الغناء بالأندلس قبل ابن باجة وغيره، هو زرياب الذي وفد من المشرق في عهد الإمارة الأموية مُحَمَّلا بإبداعات المشرق. وقد لحن الأشعار واخترع طريقة النوبة الموسيقية، كما طور الآلات، حيث أضاف إلى العود وترا خامسا، فتوفرت بذلك ألحان جديدة لم تكن معروفة من قبل. ولقد أدى ذلك إلى اتساع ميدان اللحن وثرائه. ولقد بدأ زرياب في تعليم طرائق الموسيقى والغناء¹⁸، فكثرت تلاميذه من الملحنين والمغنيين ونفقت بفضل بذلك سوق الغناء.

¹⁷ - ينظر: ابن سعيد: "المغرب في حلى المغرب"، ج2، ص: 120.

¹⁸ - ينظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ص 428؛ المقرئ: نفح الطيب، م3، ص126.

وأمام هذا الزخم الكبير من التطور الموسيقي، كان لابد من توفر مادة شعرية تستجيب لتنوع الألحان بدل الشعر القريض ذي النمط الواحد.

إن الشعر القريض لا يناسب، بسبب نفسه الطويل، خفه الألحان والموسيقى، كما أن مجتمع المشرق غير مجتمع الأندلس المختلط الأنساب والمتشعب الأذواق. فلم يعد بإمكان القصيدة التقليدية أن تواكب هذا التنوع. ثم إن البحور الشعرية التي كانت تختار للألحان محدودة، فظلت الألحان التي تفرغ فيها محدودة كذلك. وليس من المعقول أن تظل تلك المحدودية عائقاً للتطور الموسيقي. إن النضج والنمو قانون الفنون. ولا يمكن إلغاؤه¹⁹.

لهذا كله جاء الموشح ليلبي حاجة الملحنين والمطربين.

وعلاقة الموشحات بالغناء علاقة وطيدة. ومن الأدلة على ذلك قول ابن سناء الملك: "إنها كانت تغنى على إيقاع الأرغن"، وإن الغناء بها على غيره مستعار، وعلى سواه مجاز²⁰. وقد ذكر ابن سناء الملك أن بعض أنواع الموشحات لا يستقيم وزنه إلا باللحن الذي يحدد إيقاعه، كما ذكر أن الغناء يزيل نبوء بعض الموشحات فتستسيغها الأذن وتطمئن إليها النفس²¹. ومما يدل كذلك على صلة الموشحات بالغناء تلك الكلمات التي تسبق بعض الخرجات، مثل "شدا" و"غنى" وغيرهما.

ومن المعلوم أن الغناء ارتبط دائماً باللفظ السهل والعبارة ذات التركيب اليسير، والفكرة الواضحة البعيدة عن التعقيد. إن "الموشحة بألفاظها السهلة وكلماتها الموسيقية ذات الجرس الرخيم، ومعانيها التي لا يحتاج معها إلى كبير جهد لكي تفهم، ومقطعاتها من أسماط وأغصان تتكرر في رتابة مع تنوع القوافي بين المطلع

¹⁹ - ينظر: عمر فروخ: المرجع السابق، ص: 427.

* - آلة موسيقية نفخية. ينظر المعجم الوسيط، مادة "أرغن".

²⁰ - المصدر السابق، ص: 48-50.

²¹ - المصدر نفسه.

والأطفال والخرجة من ناحية، والدور بأسماطة من ناحية أخرى، كل ذلك يشكل بناء رهيفا منسجما لأغنية حسنة يملح ترنيمها"²².

وقد ذكر الدكتور مصطفى عوض الكريم أن عزوف بعض النقاد القدامى عن إيراد الموشح في مؤلفاتهم يعود إلى ما طبع لغته من سهولة وصلت أحيانا إلى حد الركاكة"²³.

وقد ذكر الدكتور عمر فروخ "أن الموشحات نشأت من حاجة المغنين إلى كلام يسايرون به الألحان، فالاندلسيون كانوا يلغون آذانهم إلى الألحان ثم يؤلفون عليها الكلمات. وبما أن الألحان التي يمكن استخراجها غير متناهية نظريا وعمليا فإن أوزان الموشحات التي نُظمت كانت كثيرة الاختلاف"²⁴.

وقد أشار الدكتور مصطفى عوض الكريم إلى أن الوشاح هو الملحن في كثير من الأحيان. وهذا ما يجعله يتجه إلى الكلمات المناسبة للمقامات الغنائية"²⁵.

وإذا ما ألقينا نظرة على ألفاظ الموشحات لمحا اللين واليسر. الأمر الذي لا نجده دائما في لغة القصائد التقليدية. وربما كان الوشاح يضع نفسه في مكان الملتقي ويراعي مستواه الثقافي، فيعتمد إلى السهولة واليسر، وذلك حتى يحقق الغاية من ذلك الأدب الذي استحدث ليخدم مختلف الطبقات والذي نظم من أجل الغناء لا غير. فلو تتبعنا قول ابن زهر التالي، لألقينا تلك السمة واضحة:

يا من أجود و يينخل على شحي و افتقاري
أهواك وعندي زياده منها شوقي وادكاري
أما يستحي مطالك من طول ما اشتكيه

²² - مصطفى الشكعة: المصدر السابق، ص: 372.

²³ - ينظر: "فن التوشيح"، ص: 90.

²⁴ - المرجع السابق، ص: 427.

²⁵ - "الموشحات والأزجال"، ص 24.

وهلا كان وصالك أدنى لمن يرتجيه²⁶

فإذا وُضع له لحن وُغني به حقق الغاية القصوى من نظمه.

ولقد هيأت طبيعة ألفاظ الموشح للغناء ميدانا أفسح فرقت الألحان وعذبت الإيقاعات وارتفع مستوى التأثير. ومن المعلوم أن للألفاظ الشعرية في حد ذاتها موسيقى خاصة ليست لغيرها من ألفاظ اللغة. ولقد تنبه الرمزيون إلى ذلك فاعتنوا بألفاظ الشعر وما فيها "من رنين وفي حركاتها وحروفها وملائمتها للشعور وتحريكها للحواس. فكان إichاء الألفاظ استكمالا لما لم توفق معاني الألفاظ في توصيله"²⁷.

وأهم نجاح يُحسب للموشح هو خدمته لتوجه القصور، فمن المعلوم أن حاجة الحكام إلى الغناء كانت كبيرة جدا. وقد جعلهم ذلك يجلبون القيان، و يطلبون كل جديد مناسب للألحان. وهذا جعل الوشاحين يجدون في الإبداع، ويبحثون عن كل ما يوافق الأذواق من مستحدث جديد. فتراكمت الألحان بقدر تراكم الموشحات. وكانت مجالس الحكام وغيرهم تضم الوشاح الناظم، والملحن، والجارية المغنية فيعطي كل منهم ما تجود به قريحته.

²⁶ - ابن سناء الملك: المصدر السابق، ص: 64.

²⁷ - شوقي ضيف: " في النقد الأدبي "، ص: 95-98.

ثانيا: تطور الموشح.

لم تُعرف البداية الأولى لظهور الموشحات، وذلك يعود إلى عزوف النقاد عن ذكرها في مصادرهم، لسببين مهمين هما:

- 1- شيوع الشيء الجديد يتخذ فترة طويلة حتى تستسيغه العقول وتألفه.
 - 2- لم تجر عادة المؤلفين القدماء بذكر أنواع أدبية تشبه الموشح بصورة كاملة، خاصة وان التراث الشرقي، سواء الشعري منه أو النثري، كان مسيطرا على مختلف الإنتاجات الأدبية²⁸، كما أنّ الموشح اهتم عند النقاد المتزمتين بالضعف اللغوي والركاكة الأسلوبية. لكن الغريب في الأمر هو أنّ أمهات الكتب تحمل بين دفتيها أرذل الأشعار وأسخفها. فلم كان الانصراف عند الموشح؟.
- لقد ثار ابن عبد ربّه على المغنّين حينما "تركوا الذي هو أرقّ من الماء، وأصفى من رقة الهواء، وكلّ مدني رقيق قد غُذي بماء العقيق، وغنّوا " بقول الشاعر²⁹:

فلا أنسى حياتي ما عبدت الله لي ربّا
وقلت لها: أنيليني فقالت: أفرق الدبّا
ولو تعلم ما بي لم تخف دبا ولا كلبا

وأصدر ابن عبد ربه حكمه قائلا: "واقل ما كان يجب في هذا الشعر أن يُضرب قائله خمسمائة سوط، وصانعه أربعمائة، والمغنّي فيه ثلاثمائة، والمصغي إليه مائتين"³⁰.

²⁸ - ينظر: عبد الإله ميسوم: "تأثير الموشحات في التروبادور"، ص: 61.

²⁹ - ابن عبد ربه: العقد الفريد، م 6، ص 77-78.
على أن البيتين الثاني والثالث ذُكرا في المجلد الثالث من المصدر نفسه (ص 72) على النحو الآتي:

وقلت لها أنيليني فقالت تعرف الدنيا
ولو تعلم ما بي لم تر الذنب ولا العتبا

³⁰ - المصدر نفسه، م 3، ص: 72.

على أن ابن ربّه كان من الذين نُسب إليهم اختراع الموشح. فأنى له أن يؤلف السخيف من الشعر؟! وإذا كان الموشح قد بلغ درجة معينة من الجودة، فقد ظلّ دائما فنّا شعبيا لا يمكن تدوينه³¹.

ومع أواخر القرن الخامس، فُتح باب الحديث عن الموشحات في الكتب لا تسجيل نصوصها؛ فقد ذكرها ابن بسّام في معلمته الشهيرة "الذخيرة"، من محاسن أهل الجزيرة"، ولكنه اعتذر عن إيراد شيء منها في كتابه المذكور³².

وقد اشتهر في هذا العصر عبادة بن ماء السماء. واستطاع بعقريّته أن ينتزع اعتراف الناس بالموشح. وجاء بعده محمد بن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمّاح صاحب المريّة. وقد وصف ابن بسّام موشحاته بأنها "شاهدة له بالتبريز والشفوف"³³.

وعُرف في ذلك العصر أيضا ابن اللبانة الذي أجاد النظم في الموشح، وارتفع نجم ابن ارفع رأسه الذي اتصل بالمأمون بن ذي النّون، صاحب طليطلة. ويذكر ابن سعيد أنّ له "موشحات مشهورة، يُغنى بها في بلاد المغرب"³⁴.

أمّا القرن السادس الهجري، فعرف حركة نشيطة سارت بالموشح أشواطا كبيرة. وقد أشار ابن خلدون في "مقدمته" إلى أن عصر المرابطين (النصف الأول من القرن السادس الهجري) كان العصر الذهبي لهذا الفن. قال: " ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة المثلّمين، فظهرت لهم البدائع. وفرسا رهان حلبتهم: الأعمى التّطيليّ ثم يحيى بن بقي "³⁵.

31 - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "الموشحات والأزجال"، ص: 42.

32 - ينظر: ق 1، م 1، ص: 468.

33 - المصدر نفسه، ق 2، م 2، ص: 802.

34 - "المغرب في حلى المغرب"، ج 2، ص: 18.

35 - "المقدمة"، ص: 1139.

ومن وشاحي ذلك: العصر كذلك الأبيض الاشبيلي، وابن باحة، وابن غرلة صاحب الموشح المزّم، إلى جانب ابن نزار وأبي جعفر بن سعيد وابن حزمون وابن زهر الذي صال وجال في هذا الفن³⁶.

وبدأ الوشّاحون ينظمون في مختلف الأغراض الشعرية. وامتألت مجالس الحكّام والأمراء بهم. وكان ابن زهر يدير جلسات نقد يحكم فيها بين الوشّاحين، ويبيّن المتكلف من الموشحات من غيره³⁷.

وقد امتد ذلك الزخم إلى القرن السابع الهجريّ، حيث تقوّت جبهة الوشّاحين بانضمام ابن عربيّ وهو رجل دين معروف بالوقوف في وجه كلّ جديد. فلم يدافع عن الموشّح فحسب، بل نظم فيها أيضاً، إذ تُعدّ إنتاجاته التوشّحية سمط الدرر في هذا المجال. وعاصره ابن الصابوني، وابن سهل الإسرائيلي³⁸.

على أنّ الموشّحات بدأت تفقد نوعاً من رونقها في النصف الثاني من القرن السابع الهجريّ، وبدأ عصر جديد ازدهر فيه " فنّ الزجل ". ولم يبرز وشّاح قويّ إلاّ لسان الدين بن الخطيب، وإن كان في أغلب الأحيان ينظم على طريقة سابقه، فقد جارى موشحة ابن الصابوني التي مطلعها³⁹:

قسما بالهوى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر

بموشحته التي يقول في أولها:⁴⁰

رب ليل ظفرت فيه بالبدر ونجوم السماء لم تدر

³⁶ - ينظر: مصطفى عوض الكريم: " الموشحات والأزجال " ، ص: 43 .

³⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 44 .

³⁸ - ينظر: المرجع نفسه.

³⁹ - ينظر: المرجع نفسه.

⁴⁰ - السيد مصطفى غازي: " ديوان الموشحات الأندلسية " ، م2، ص: 492.

وجارى موشحة ابن سهل⁴¹:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صبّ حله عن مكنس
فهو في حرّ وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس
موشحته المشهورة التي يبدأها بقوله⁴²:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلاّ حلما في الكرى أو خلصة المختلس

واهتم ابن الخطيب بالموشحات، فجمع ما نظمه سابقوه في كتاب سمّاه "جيش التوشيح"⁴³.

ويعتبر ابن زمرك آخر وشّاح. وقد عُرفت موشحاته بالعدوبة والسلاسة التي لا يكتنفها تكلف، وأتى جلّها معربا ذا نفس غريب. وأوزانها مبنية على مخلع البسيط وقد سجلها المقري في مؤلفه "أزهار الرياض" وهي خمسة عشر موشحا⁴⁴.
وأثناء هذه المراحل تطور الموشح بشكل ملحوظ، يمكن تبيينه على النحو الآتي:

يذكر الدكتور إحسان عباس أنّ الموشّح بدأ مشطرا كالقصيدة، لكنه ركب الأوزان المهمة وختم بقفل عامّي أو عجمي يسمى "المركز". وهذه أولى خطواته، والتي تمثلها موشحات القبري⁴⁵.

ويشير ابن بسّام إلى أنّ عدد التضمينات في الأقفال تضعف، فأصبح الشطر الواحد عدة أجزاء مختصرة⁴⁶. وكان هذا مع يوسف بن هارون الرمادي الذي ورد

41 - المصدر نفسه، ص: 489.

42 - م.ن، ص: 484.

43 - ينظر: مصطفى عوض الكريم: "الموشحات والأزجال"، ص: 45.

44 - ينظر: ج2، ص: 176.

45 - ينظر: "تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين"، ص: 229.

46 - ينظر: "الذخيرة"، ق1، م1، ص: 468.

اسمه عند ابن سناء الملك في قوله: "ويُشترط في الخرجة أن يكون لفظها رماديًا زطيًا"⁴⁷.

ثم عرفت الأغصان تجزئة، فكان الغصن عدّة أشطار. وكان هذا مع عبادة بن ماء السماء الذي "قوم ميلها وسنادها"، كما يقول ابن بسّام، وجعل صنعه التوشيح أكثر تفعيدا وتنظيما⁴⁸.

ويذكر ابن بسّام أن عبادة بن ماء السماء أحدث ما سُمّي بعد "بالتضفير"، وذلك في اعتماده مواضع الوقف في الأغصان، فيضمنها كما فعل الرمادي قبله في "المراكز"⁴⁹.

والملاحظ أن قرائح الوشاحين، وبمرور العصور، جادت بإنتاجات جيدة، جعلت المهتمين من العلماء يؤرخون لها ويدعمون الموقف التنظيري، حتى أن بعضهم، كابن سناء الملك، والصفدي، وابن الخطيب، أفردوا مؤلفات خاصة للموشح، وليس ذلك إلاّ دليلا على الأهمية الكبيرة التي يكتسبها هذا الفن المتميّز.

⁴⁷ - "دار الطراز"، ص: 43.

⁴⁸ - ينظر: المصدر السابق، ق1، م1، ص: 468.

⁴⁹ - ينظر: المصدر نفسه.

الخاتمة

لقد كان ما تقدم في تضاعيف هذه المذكرة، رحلة في رحاب نظرية الأدب، من خلال موضوع نظرية الموشح، كما أبرز ملامحها بعض الدارسين. وقد مكنتنا هذه الرحلة من الوقوف على محطات عدّة، نجملها في النقاط التالية:

- اختلفت الآراء حول نشأة الموشح بين النظرية الأعجمية التي دافعت عن النشأة الإسبانية للموشح، وبين النظرية الشرقية التي اعتبرت الموشح فناً مشرقياً الأصلى. على أن الثابت عند الدارسين قديماً وحديثاً هو: أن الموشح فن أندلسي المنشأ، وذلك لمساهمة مجموعة من العوامل المؤثرة في ظهوره وتطوُّره.

- تميّزت طبيعة الموشح بخصوصية كبيرة ظهرت في الطبيعة العروضية، حيث تفنن الوشاحون فطرقوا البحور الشعرية المهجورة، وأضافوا إلى الأصلية بعض الزيادات، كما جددوا في القوافي ونوعوا فيها.

- بُني الموشح على شكل خطوط متوازية؛ فكان الدور والقفل ... بدل الصدر.

- نظم الوشاحون في مختلف الأغراض الشعرية المعروفة.

- عرفت اللغة في الموشح استعمالاً خاصاً، حيث تم نظم جسم الموشح باللغة الفصحى، واستُخدمت العامية أحياناً في الخرجة. وتوخّى الوشاحون السهولة في الأسلوب، إلى حدّ عدم مراعاة العلاقات الإعرابية في التركيب.

- أدّى الموشح وظيفة أدبية، إذ استطاع الوشاحون ملاءمة الذوق العام لجمهور المتلقين.

- أدّى الموشح وظيفة موسيقية، بما وفّره من نصوص لبّت حاجة الملحنين الكبيرة. فساهمت الموشحات خاصة بخفة أوزانها، وتنوع قوافيها، وسهولة معانيها، في وفرة التلاحين وتنوعها.

- خدم الموشح التطور الأدبي الأوربي، وذلك في ما يُسمّى بشعر التروبادور الذي اعتمد طريقة نظم الموشحات.

- قاد الموشح ثورة التجديد الشعرية مبكراً، وسلك طريقته شعراء كثيرون في العصر الحديث، كما أدى عنصر التنويع الموسيقي في الأوزان والقوافي إلى وجود الشعر الحر الذي يُعدّ محطة بارزة في تطور القصيدة العربية.

* القرآن الكريم:

* الكتب:

أولاً: المصادر

- 1- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني: "الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق إحسان عباس، ليبيا-تونس: الدار العربية للكتاب، (د. ط.)، 1978م.
- 2- ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد لسان الدين: "جيش التوشيح"، تحقيق هلال ناجي، تونس: مطبعة المنار، (د. ط.)، 1967م.
- 3- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن: "كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د. ط.)، 1982م.
- 4- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني: "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، تحقيق محمد مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1983م.
- 5- ابن سعيد، أبو الحسن علي المغربي: "المغرب، في حلى المغرب"، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية، 1964م؛ "المقتطف من أزاهير الطرف"، تحقيق: سيّد حنفي حسنين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ط.)، 1984م.
- 6- ابن سناء الملك، أبو القاسم هبة الله بن جعفر: "دار الطراز في عمل الموشحات"، تحقيق جودت الركابي، دمشق: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1977م.
- 7- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي: "العقد الفريد"، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة: مطبعة الاستقامة، الطبعة الثانية.

- 8- ابن عبد الملك ، أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي: "الذيل والتكملة، لكتابي الموصول والصلة"، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، (د. ط.)، 1965-1973م.
- 9- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: "الشعر والشعراء"، بيروت: دار إحياء العلوم، الطبعة الخامسة.
- 10- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري: "لسان العرب"، بيروت: دار صادر، الطبعة السادسة، 1997م.
- 11- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: "ديوان أبي تمام"، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق عبده عزام، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة، 1983-1987م.
- 12- أبو نواس، الحسن بن هانئ: "ديوان أبي نواس"، تحقيق وشرح إسكندر أصاف، القاهرة، (د. ط.).
- 13- الأصفهاني، أبو الفرج: "الأغاني"، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الخامسة، 1981م.
- 14- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري: "يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر"، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1947م.
- 15- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: "البيان والتبيين"، تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة: مؤسسة الخانجي، الطبعة الثالثة، 1982م؛ "الحيوان"، تحقيق محمد عبد السلام هارون، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، 1399هـ-1969م.
- 16- الجرجاني، عبد القاهر: "أسرار البلاغة في علم البيان"، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثانية.

- 17- الحموي، ياقوت: "معجم الأدباء"، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1980م.
- 18- الزمخشري، جار الله القاسم محمود بن عمر: "أساس البلاغة"، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، (د. ط.).
- 19- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: "توسيع التوشيح"، تحقيق ألير حبيب مطلق، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1966م.
- 20- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: "إحياء علوم الدين"، القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ط.).
- 21- المحي، محمد: "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، بيروت: دار صادر، (د. ط.).
- 22- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني: "نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، (د. ط.)، 1968م؛ "أزهار الرياض، في أخبار عياض"، الرباط: صندوق إحياء التراث الإسلامي، (د. ط.)، 1978م.

ثانياً: المراجع

- 23- إبراهيم مصطفى وآخرون: "المعجم الوسيط"، القاهرة: دار المعارف، 1972م.
- 24- أبو ماضي، إيليا: "ديوان إيليا أبو ماضي"، بيروت: دار العودة، (د. ط.).
- 25- إحسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين"، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الرابعة 1974م؛ "فن الشعر"، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الثانية، 1996م.

- 26- أحمد أمين: "النقد الأدبي"، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1992م؛ "الموسوعة الأدبية"، بيروت: دار الكتاب العربي، 1967م.
- 27- الأهواني، عبد العزيز: "الزجل في الأندلس"، القاهرة: نشر معهد الدراسات العربية العالية، مطبعة الرسالة، (د. ط.)، 1957م.
- 28- الأوسي، حكمت علي: "فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة"، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، 1977م؛ "الأدب الأندلسي في عصر الموحدين"، القاهرة: مكتبة الخانجي، (د. ط.).
- 29- البستاني، بطرس: "أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث"، بيروت: دار الجليل، (د. ط.)، 1997م.
- 30- البهيتي، نجيب محمد: "تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري"، الدار البيضاء: دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، (د. ط.).
- 31- بوزوينة عبد الحميد: "ظاهرة التطور الأدبي بين النظرية والتطبيق"، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د. ط.)، 1979م.
- 32- تليمة، عبد المنعم: "مقدمة في نظرية الأدب"، بيروت: دار العودة، الطبعة الثانية، 1979م.
- 33- الجراري، عباس: "موشحات مغربية"، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، الطبعة الأولى.
- 34- الجوزو، مصطفى: "نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)"، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1988م.
- 35- الحاوي، إيليا: "فن الوصف وتطوره في الشعر العربي"، بيروت: دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية.
- 36- الحلو، سليم: "الموشحات الأندلسية، نشأتها وتطورها"، بيروت: دار مكتبة الحياة، الطبعة الأولى، 1965م.

- 37- خالص، صلاح: "إشبيلية في القرن الخامس الهجري: دراسة أدبية تاريخية في نشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها"، بيروت: دار الثقافة، (د. ط.)، 1965م.
- 38- الدقاق، عمر: "ملاحم الشعر الأندلسي"، حلب: منشورات جامعة حلب، الطبعة الثالثة، 1978م.
- 39- زكي نجيب محمود: "في فلسفة النقد"، بيروت: دار الشروق، الطبعة الأولى، 1979م.
- 40- سلدن، رامان: "النظرية الأدبية المعاصرة"، ترجمة جابر أحمد عصفور، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ط.)، 1998م.
- 41- ستولنتير، جيروم: "النقد الأدبي: دراسة جمالية وفلسفية"، ترجمة فؤاد زكرياء، المؤسسة العربية للدراسات، الطبعة الثانية.
- 42- سفنست، لايي: "نظرية الأنواع الأدبية"، ترجمة حسن عون، الإسكندرية: منشأة المعارف، (د. ط.)، 1978م.
- 43- الشكعة، مصطفى: "الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه"، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، 1979م.
- 44- شوقي، أحمد: "الشوقيات"، بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ط.).
- 45- شوقي ضيف: "في النقد الأدبي"، القاهرة: دار المعارف، الطبعة السادسة، 1962م؛ "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثامنة.
- 46- طه حسين: "ألوان"، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة.
- 47- عاصي، ميشال: "الشعر والبيئة في الأندلس"، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1970م.

- 48- العشماوي، محمد زكي: "الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد"، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (د. ط.)، 1983م.
- 49- عصفور، جابر أحمد: "الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي"، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، (د. ط.)، 1974م.
- 50- عناني، محمد زكريا: "ديوان الموشحات الأندلسية"، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، 1986م.
- 51- عوض الكريم، مصطفى: "فن التوشيح"، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الثانية، 1974م؛ "الموشحات والأزجال"، القاهرة: دار المعارف، (د. ط.)، 1965م.
- 52- عيد، رجاء: "لغة الشعر: قراءة في الشعر العربي الحديث"، الإسكندرية: منشأة المعارف، (د. ط.)، 1985م.
- 53- عيد، يوسف: "التوشيح في الموشحات الأندلسية، باب جديد في أوزان الموشح ونغماته"، بيروت: دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1993م.
- 54- غنيمي هلال، محمد: "النقد الأدبي الحديث"، بيروت: دار العودة، الطبعة الأولى، 1982م؛ "الأدب المقارن"، بيروت: دار العودة، (د. ط.)، 1983م.
- 55- غازي، السيد مصطفى: "ديوان الموشحات الأندلسية"، الإسكندرية: منشأة المعارف، (د. ط.)، 1979م.
- 56- فروخ، عمر: "تاريخ الأدب العربي: الأدب في المغرب والأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف، أواخر القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد"، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، 1997م.
- 57- فوزي سعد عيسى: "الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين"، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، (د. ط.)، 1990م.

- 58- الماضي، شكري عزيز: "في نظرية الأدب"، بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ط.)، 1985م.
- 59- مجاهد عبد المنعم مجاهد: "علم الجمال"، القاهرة: عالم الكتب، الطبعة الثانية.
- 60- محمد سعيد محمد: "دراسات في الأدب الأندلسي"، منشورات سبها، الطبعة الأولى، 2001م.
- 61- مندور، محمد: "الأدب وفنونه"، القاهرة: دار النهضة للطباعة والنشر، (د. ط.).
- 62- موافي، عثمان: "في نظرية الأدب: من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم"، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، 1995م.
- 63- ميسوم، عبد الإله: "تأثير الموشحات في التروبادور"، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د. ط.)، 1981م.
- 64- النقاش، رجاء: "أصوات غاضبة في الأدب والنقد"، بيروت: منشورات دار الآداب، الطبعة الأولى، 1970م.

* المجلات:

- العربي: الكويت، العدد 547، جوان 2004؛ العدد 551، أكتوبر 2004.
- المنهل، جدة: دار المنهل للصحافة والنشر، العدد 520، مارس 1996.

* المواقع الإلكترونية:

- فؤاد أحمد إبراهيم: "وحدة الفنون وتراسلها"، مجلة الجزيرة:

www.nisal.jazirah.com

فهرس الموضوعات

أ	مقدمة
1	مدخل : في نظرية الأدب
3	1- نظرية المحاكاة
7	2- نظرية التعبير
9	3- نظرية الخلق
10	4- نظرية الانعكاس
13	الفصل الأول: نشأة الموشح
14	1- النظرية الأعجمية
19	2- النظرية المشرقية
32	3- النظرية الأندلسية
52	4- تقييم
56	الفصل الثاني: طبيعة الموشح
57	- تعريف الموشح
59	- أجزاء الموشح
70	- شكل الموشح
73	- الطبيعة العروضية
87	- موضوعات الموشح
100	- طبيعة اللغة
115	- طبيعة التصوير

122	الفصل الثالث: وظيفة الموشح وتطوره
123	<u>أولاً</u> : وظيفة الموشح
123	1- الوظيفة الأدبية
131	2- الوظيفة الموسيقية
135	<u>ثانياً</u> : تطور الموشح
140	الخاتمة
143	المصادر والمراجع